هدية مجلة الأزهر

محمد
رسول الله صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة ـ بحث وتحقيق

فضيلة الشيخ
محمد الصادق إبراهيم عرجون
عميد كلية أصول الدين الأسبق

١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تاسست عام ١٣٤٦ هـ - ١٩٣١م

بيعة العقبة الكبرى

انتشر الإسلام في يثرب على يدي مصعب بن عمير، والذين بايعوا رسول الله ﷺ من الخزرجيين الاثني عشر على أن يمنعوه إذا قدم عليهم، وفي طليعتهم أحدثهم سنًا أبو أمامة أسعد بن زرارة الذي كان ساعد مصعب الأيمن، وعضده القوي، وكان مصعب قد اختاره فنزل عليه، فأحسن نزله، وكان يتنقل به بين دور الأنصار، فيدعو إلى الله من لم يكن أسلم، ويُقرئ القرآن، ويعلّم الشرائع والأحكام من كان قد أسلم، حتى أصبحت يثرب دار الإسلام المهيئة لتلقي أعظم حدث في تاريخ الدعوات الإلهية وتاريخ النبوات والرسالات، بل في تاريخ الحياة.

وأدرك مصعب -رضي الله عنه- ومن معه من المؤمنين أن أفق الحياة في يثرب قد عمّه نور الهداية، وأشرقت في مطالعه شمس الرسالة الخالدة، وأن الأرض التي يقفون فوقها، وهم يحملون ألوية النصر قوية، صلبة، لا تسيخ فيها قدم مؤمنة، وأن نسائم الأمل تسري من يثرب لتنعش النفوس التي أضناها الألم، وأن يثرب تفتح ذراعيها مرحبة بهجرة أولئك الذين يتقلبون على جمر المحن، ويكتوون بسعير فادح البلاء، وهم صابرون محتسبون، يرجون رحمة الله وفرجه، ويتطلعون إلى

يثـرب بعد بيعتيهـا اللتين مهدتا لدعوة الإسـلام أرضًا خصبة تنبت فيها الهداية ويثمر فيها الإيمان.

تشـوف مصعـب ومن معـه مـن المؤمنين إلى هجرة رسول الله إليهم:

وتصـور مصعـب -رضي الله عنـه- ومن معه مـن المؤمنين رسـول الله ﷺ وهـو لا يزال في بطاح مكة الظالـم أهلها يتبع النـاس في منازلهم ومجتمعاتهم الموسـمية، يقول لهم: «من يئوينـي؟ من ينصرني؟ حتى أبلِّغ رسـالة ربـي، وله الجنة» فلا يجـد أحـدًا يئويـه ولا ينصره، وهـو ﷺ يمضي متنقـلًا بين رحالهـم، يشـيرون إليـه بالأصابـع حتـى بعث الله لـه طلائع النصر، تحمل رايات الأمل السـري من الأوسيين، ثم إخوتهم الخزرجيين الذين بايعوه وعاهـدوه على أن ينصروه وينصروا دعوته؛ نصرًا يعزه ويعز رسـالته ويفتح أمامـه وأمامها أبواب المسير بكتائب الجهاد في سبيل نشر الخير والحق والهدى.

وها هي ذي دارهم (يثرب) لا تصبح ولا تمسي إلا على ذكر لرسول الله ﷺ، وذكر لدعوة الإسلام، وتلاوة للقرآن، وتبيين هدايته، وليس بين بيوتها بيت إلا وفيه مسـلمون ومسلمات، كلهم يحبون الإسلام، ونبي الإسلام، وشرائع الإسلام، يُفدون هذا الدين بأرواحهم وأموالهم، وفلذات أكبادهم.

فماذا بقي وراء ذلك مما يمنعهم من استقدام رسول الله ﷺ إليهـم، وإلى بلدهم حيث يأوي -بعـد الله عز وجل- إلى ركن شـديد من محبتهم لـه وحرصهم عليه، ليفوا لـه بما عاهدوه عليه من النصرة والحماية والمنعة؟

ومـاذا بقي وراء ذلك مما يحـول بين بلدهم وبين أن تكون قلعة الإسـلام الحصينة، وحصنه القوي الـذي يأوي إلى كنفه المؤمنـون المضطهـدون، ليجدوا فيـه عند إخوانهم أنصار الله المحبـة والأثـرة والإخاء المواسـي، والمواسـاة المؤثرة، والحماية القوية، والقوة القاهرة للأعداء؟

لا شـيء، لا شـيء بقي وراء ذلك، فالطريق ممهد والمنائر منصوبـة، والمعالـم واضحـة، ولهفـة اللقيا تمـلأ كل قلب، فليـس إذن إلا توجيـه العزائـم اليثربية إلى مكـة الظالم أهلها لتفتـح أبواب الشـعاب والمغاور أمام أولئك المسـتضعفين فـي أرض البأو الكفور، والعتو الفجور، ليسـتنقذوهم من ظلم المسـتكبرين فـي الأرض، مهاجريـن إلى إخوانهـم أنصار الله ورسـوله ﷺ، وإلى البلد الذي ادخر الله له هذا الخير العظيم، والذي أقبل على دعوة الإسلام فاحتضنهـا، فدوَّى صوته بين جنباتها قويًا نفاذًا.

وليس إذن إلا أن يضعوا بين يدي رسول الله ﷺ صورة صادقة للإسلام في بلده وبين قومهم، في إطار يبين مدى انتشار الإسلام فيهم، ومدى قوته في نفوسهم وإفعام القلوب بحبه والتنافس في التفقه في شرائعه وأحكامه.

وليس إذن إلَّا أن يلقوا رسول الله ﷺ في جمع من صفوة مؤمنيهم يمثل كل هذه الحقائق والمعاني ليضعوا بين يديه ﷺ صورة اللهفة المتطلعة إلى رؤية رسول الله ﷺ يطأ بقدمه الحبيبة أرضهم، ويدخل عليهم ديارهم هاديًا مهديًا، داعيًا إلى الله رسولًا نبيًا، ويمشي بين أيديهم معلمًا رائدًا إلى الخير والنور والهداية، مطمئنًا مكفول المنعة عزيز الجانب، مرهوب الكلمة في الحق وللحق.

عزائم ماضية يقدرها رسول الله ﷺ حق قدرها:

فليجمعوا أمرهم، وليأتمروا فيما بينهم ومعهم أستاذ الدعاة، أستاذهم القارئ المقرئ المجتبَى من رسول الله ﷺ لإقرائهم وتعليمهم، وقد قرءوا وتعلموا، ولم يبق إلا أن يرحلوا إلى رسول الله ﷺ في جمع منهم مع أستاذهم ومعلمهم مصعب بن عمير ليطلبوا من رسول الله ﷺ أن يقدم إليهم ليتبوأ مكانه العلي الأعلى في آفاق قلوبهم، لينشر دعوته،

ويبلغ رسالته آمنًا مطمئنًا، عزيزًا قويًا، تحوطه كتائب المنعة وتفديه أرواح المؤمنين.

قال العلامة ابن كثير في (البداية): ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج من خرج من الأنصار من المسلمين مع حجاج قومهم، وكانوا -كما قال الحاكم وغيره- خمس مئة من أهل الشرك حتى قدموا مكة، فواعد المسلمون رسول الله ﷺ العقبة من أواسط أيام التشريق حين أراد الله بهم من كرامته والنصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله.

وفي حديث جابر عند الإمام أحمد: أن المسلمين من الأنصار ائتمروا فيما بينهم وقالوا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويُطرَد في جبال مكة، ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلًا حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شِعب العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا، قال ابن سعد: يزيدون رجلًا أو رجلين، وامرأتان، نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، وعند الحاكم: خمس وسبعون نفسًا، وليس هذا بخلاف لأن بعض الرواة يترك الكسر الذي فوق العقد، وبعضهم يذكره، ويترك النساء وبعضهم يذكره كاملًا.

وفي حديث كعب بن مالك من رواية ابنه عبد الله عنه وكان عبد الله بن كعب من أعلم الأنصار.

قال: فلما كانت الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ بمنى أول الليل نمنا مع قومنا في رحالنا، فلما استثقل الناس في النوم تسللنا تسلل القطا مستخفين حتى إذا اجتمعنا بالعقبة أتانا رسول الله ﷺ.

قال عروة بن الزبير وموسى بن عقبة: كانوا سبعين رجلًا وامرأة واحدة، منهم أربعون من ذوي أسنانهم، وثلاثون من شبابهم، أصغرهم أبو مسعود، وجابر بن عبد الله.

خطبة العباس بن عبد المطلب:

وكان مع رسول الله ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس رسول الله ﷺ كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب فقال: يا معشر الخزرج -وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها- إن محمدًا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم

ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده.

قال ابن سعد: فكان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: «يا معشر الخزرج، إنكم دعوتم محمدًا إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد من أعز الناس في عشيرته، يمنعه والله منا من كان على قوله، ومن لم يكن منا على قوله، منعة للحسب والشرف، وقد أبى محمدًا الناسُ كلهم غيركم، فإن كنتم أهل قوة وجَلَد وبصر بالحرب، واستقلال بعداوة العرب قاطبة، ترميكم عن قوس واحدة فارتئوا رأيكم، ولا تفرقوا إلا على ملأ منكم واجتماع، فإن أحسنَ الحديث أصدقه».

ثم قال ابن سعد: فقال البراء بن معرور: قد سمعنا ما قلت: وإنا والله لو كان في أنفسنا غير ما تنطق به لقلناه، ولكنا نريد الوفاء والصدق، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ.

ثم قال ابن سعد: ويقال إن أبا الهيثم بن التَّيِّهان أول من تكلم فأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، فقال نقبله على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف.

ولغطوا، فقال العباس وهو آخذ بيد رسول الله ﷺ : أخفوا جرسكم فإن علينا عيونًا، وقدِّموا ذوي أسنانكم فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم. ثم بايعوا رسول الله ﷺ، فقال لهم: «إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني عشر نقيبًا، فلا يَجدَنّ منكم أحد في نفسه أن يؤخذ غيره فإنما يختار لي جبريل» قال مالك بن أنس: حدثني شيخ من الأنصار: أن جبريل -عليه السلام- كان يشير له إلى من يجعله نقيبًا، قال مالك: كنت أعجب كيف جاء من قبيلة رجلان ومن قبيلة رجل، حتى حدثني هذا الشيخ أن جبريل كان يشير إليهم يوم البيعة، يوم العقبة.

وعند ابن سعد في الطبقات: فخرجوا وهم سبعون رجلًا، يزيدون رجلًا أو رجلين، حضر الأوس والخزرج -أي جماعتهم- وهم خمس مئة حتى قدموا على رسول الله ﷺ بمكة، فسلموا عليه، ثم وعدهم مِنًى أوسط أيام التشريق ليلة النفر الأول إذا هدأت الرجل أن يوافوه في الشعب الأيمن، إذا انحدروا من منى بأسفل العقبة، وأمرهم ألا ينبهوا نائمًا، ولا ينتظروا غائبًا، فخرج القوم بعد هدأة يتسللون الرجل والرجلان، وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى الموضع، معه العباس بن عبد المطلب ليس معه غيره.

فلما نظر العباس إلى القوم قال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخي!! لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك؟ إني ذو معرفة بأهل يثرب وهؤلاء قوم لا أعرفهم، هؤلاء أحداث.

شرائط بيعة العقبة .. منهج وعهد:

وفي حديث جابر: فقالت الأنصار: يا رسول الله، علام نبايعك؟ فقال ﷺ : «بايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذكم فيه لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم بيثرب، تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

فقمنا نبايعه وأخذ بيده أسعد بن زرارة -وهو أصغر السبعين رجلًا إلا أنا- فقال أسعد بن زرارة: رويدًا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، إن إخراجه اليوم -أي من بلده مكة وقومه إلى يثرب بلدنا- وانحيازه إلينا مفارقة للعرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على عض السيوف إذا مستكم، وعلى قتل خياركم، وعلى مفارقة العرب كافة،

فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو أعذر لكم عند الله -عز وجل-.

فقال القوم: أمِطْ يدك يا أسعد بن زرارة، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها. وفي رواية عند ابن كثير في البداية: ولا نُسْلَبها أبدًا، فقمنا إليه ﷺ نبايعه رجلًا رجلًا، يأخذ علينا شرطه، ويعطينا على ذلك الجنة.

وفي رواية أنهم قالوا: تكلم يا رسول الله، فتكلَّم رسول الله ﷺ ودعا إلى الله -عز وجل-، وتلا القرآن، ورغَّب في الإسلام، فأجبناه بالإيمان به، والتصديق له وقلنا له: يا رسول الله، خذ لربك ولنفسك، فقال ﷺ: «إني أبايعكم على أن تمنعوني مما منعتم منه أبناءكم ونساءكم» فأجابه البراء بن معرور، فقال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحَلْقة، ورثناها كابرًا عن كابر.

فعرض في الحديث أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إن بيننا وبين أقوام حبالًا، وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن الله أظهرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني،

أسالم من سالمتم، وأحارب من حاربتم» فقال البراء بن معرور: يا رسول الله ابسُط يدك نبايعك، فقال النبي ﷺ: «أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا» فأخرجوهم وصرخ الشيطان بأنفذ صوت وأبعده، فقال: يا أهل الجباجب -أي يا أهل المنازل- هل لكم في مذمَّم، -ما يقول محمد- والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم. وعند ابن سعد في الطبقات: يا أهل الأخاشب هل لكم في محمد والصباة، قد اجتمعوا على حربكم.

فقال رسول الله ﷺ: «هذا أزبّ العقبة -أي شيطانها- هذا ابن أَزْيَب، أما والله لأفرغن لك يا عدو الله، ارفَضُّوا إلى رحالكم» فقال العباس بن نضلة، أخو بني سالم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن غدًا على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نؤمر بذلك ارفَضُّوا إلى رحالكم» فرجعنا إلى رحالنا، فاضطجعنا على فرشنا، فلما أصبحنا أقبلت جلّة من قريش فيهم الحارث بن هشام، فتى شاب، وعليه نعلان جديدتان حتى جاءونا في رحالنا فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا لتستخرجوه من بين أظهرنا، وإنه والله ما من العرب أحد أبغض إلينا أن تنشب الحرب فيما بيننا وبينهم منكم، فانبعث مَنْ هناك من قومنا من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان من هذا شيء، وما

فعلنــاه، وأنا أنظر إلــى أبي جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام وهو صامت وأنا صامت، فلما تثوَّر القوم لينطلقوا قلت كلمة، كأني أريد أن أشــركهم فــي الكلام: يا أبا جابر أنت ســيد من ســاداتنا وكهل من كهولنا، لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ فسمعني الفتى، فخلع نعليه فرمى بهما إليَّ، وقال: والله لتلبســهما، فقال أبو جابر: مهلًا! أحْفَظْتَ -لَعَمْر الله- الرجــل -يقول: أخجلْتَــه- اردد عليه نعليه، فقلت: والله لا أردهما، والله إني لأرجو أن أستلبه.

ثم انصرف المشركون فأتوا عبد الله بن أبيّ فسألوه وكلموه فقال: إن هذا الأمر جسيم وما كان قومي ليتفوتوا عليَّ بمثله، فانصرفوا عنه.

قال ابن إسحاق: فلما تفرق الناس عن بيعة رســول الله ﷺ ليلــة العقبــة، وكان الغد فتَّشتْ قريــش عن الخبر وتنطســته فوجــدوه حقًــا[1]، فانطلقوا فــي طلب القوم فأدركوا ســعد بن عبــادة ومنذر بــن عمرو، فأما منــذر فتفلّت منهــم وفاتهم فلم يقدروا عليه، وأما ســعد بن عبادة فأوثقوه وشــدّوا يديه بِنسعة

(١) يقال لكل من دقق النظر في الأمور واستقصــى عليها: تنطّس، ومنه قولهم للطبيب المدقق طبيب نطاسيّ. (المجلة)

رحله إلى عنقه[2]، وكان ســعد بن عبادة كثير الشعر، فطفقوا يجذبونــه بجُمَّتِــه ويصكونه ويلكزونه إلــى أن جاءه مطعم بن عدي[3]، والحارث بن أمية، بعد أن هتف باسميهما بإشارة أبي البختري، وكان المطعم والحارث يعرفان سعد بن عبادة وذكرا له فضله عليهما في حراسة تجارتهما إذا مرت بيثرب، فخلَّصا سعدًا من أيدي مشركي قومهما، وأطلقاه وخلَّيا سبيله.

قصــة اســتقبال البــراء بــن معــرور الكعبــة باجتهاده:

فــي دلائل البيهقي مــن حديث عبد الله بــن كعب بن مالك عــن أبيه قــال: خرجنا في الحجــة التي بايعنا فيها رســول الله ﷺ بالعقبة مع مشــركي قومنا، ومعنا البراء بن معرور كبيرنا وســيدنا، حتى إذا كنّا بظاهر البيداء قال: يا هؤلاء تعلمنَّ أني قــد رأيت رأيًا والله ما أدري توافقــون عليه أم لا، فقلنا: وما هو يا أبا بشــر؟ قــال: إني قد رأيــت أن أصلي إلى هــذه البنية ولا أجعلهــا مني بظهر، فقلنــا: لا والله لا تفعل، وما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلّي إلا إلى الشــام، قــال: فإني والله لمصلٍّ إليها، فكان

(٢) النِّسعة: سير من الجلد يضفر ويشد به الرحل علــى ظهور البغــال، والقطعة منه نِسعة. (المجلة)
(٣) الجُمَّة: مجتمع الشعر الكثير. (المجلة)

إذا حضرت الصلاة توجه إلى الكعبة، وتوجهنا إلى الشام حتى قدمنا مكة، فقال لي البراء: يا ابن أخي انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ حتى أسأله عما صنعت في سفري هذا، فلقد وجدت في نفسي منه بخلافكم إياي.

قال كعب: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ، فلقينا رجل بالأبطح فقلنا، هل تدلنا على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال: وهل تعرفانه إن رأيتماه؟ فقلنا: لا والله ما نعرفه، ولم نكن رأينا رسول الله ﷺ، فقال: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب؟ فقلنا: نعم، وقد كنا نعرفه، كان يختلف إلينا بالتجارة، فقال: إذا دخلتما المسجد فانظرا العباس فهو الرجل الذي معه، فدخلنا المسجد فإذا رسول الله ﷺ والعباس ناحية المسجد جالسين، فسلمنا ثم جلسنا، فقال رسول الله ﷺ: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل؟» قال العباس: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: «الشاعر؟» قال العباس: نعم، فقال البراء: يا رسول الله إني كنت رأيت في سفري هذا رأيًا، وقد أحببت أن أسألك عنه لتخبرني عما صنعت فيه، قال رسول الله ﷺ: «وما ذاك»؟ قال البراء: رأيت أن لا أجعل هذه البنية مني بظهر، فصليت

إليها، فقال رسول الله ﷺ: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها» فرجع إلى قبلة رسول الله ﷺ.

بيعة العقبة الكبرى ومكانتها في الإسلام:

عاد أنصار الله إلى بلدهم بعد أن تقلّدوا في أعناقهم هذه البيعة العظمى، مؤمنين أشد ما يكون الإيمان في قلوبٍ ملأها الإخلاص واليقين، قوّامين بموجبات بيعتهم، أوفياء لعهودهم أكمل ما كان الوفاء بعهد، لا يشغلهم إلا ترقب وصول رسول الله ﷺ ليكونوا من حواليه سامعين مطيعين، يفدونه، ويفدون أصحابه بكل ما يملكون من وسائل الحياة.

لقد كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التاريخي «فتح الفتوح»؛ لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة، مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه من التضحية مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال.

فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي في ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة تقف متألبة عليها، لم يغب عن أنصار الله قدرها ووزنها في ميادين الحروب والقتال.

وهي في آثارها تشمير ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل إعلاء كلمة الله على كل عالٍ مستكبر في الأرض حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق وعدل ونصر واستشهاد، وتبليغ لرسالة الإسلام.

لقد أخذ رسول الله ﷺ على هؤلاء الأنصار في هذه البيعة الكبرى ما لم يأخذه على أحد غيرهم قط، لا من جلدتهم من الذين سبقت لهم الحسنى فبايعوا رسول الله ﷺ على الإيمان قبل هذه البيعة الكبرى بيعات كانت توطئة وتمهيدًا لها، ولا من غير جلدتهم من الذين سبقوا إلى الإيمان منذ إشراق شمس هدايته في أفق مكة.

وبهذا كله كانت هذه البيعة العظمى حجر الأساس في بناء صرح دولة الإسلام على دعائم القوة المؤيدة للحق الناشرة لنور الهداية في الدعوة إلى الله تعالى، المقيمة لمنائر التوحيد

في الأرض، المقوضة لركائز الظلم والاستبداد، الحاملة لألوية العدالة الاجتماعية، الداعية إلى التآخي بين الأمم والشعوب والجماعات والأفراد، المنادية بالمواساة والتراحم.

وبهذا كله كانت هذه البيعة الكبرى اللبنة الأساسية في تكوين كتائب الجهاد لرد العدوان والتناصف من الظلمة المتجبرين، ودفع الظلم والاضطهاد الذي كان يصب على المؤمنين المستضعفين في مكة من الفجرة المستكبرين، جلاوزة الوثنية، وعتاولة الشرك.

قصة إسلام عمرو بن الجموح:

هذه القصة من أدل الدلائل على قوة يقين أهل البيعة الكبرى من الأنصار ورسوخ إيمانهم ووفائهم بما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ، من إفراد الله بالعبودية له وحده، وتطهير أنفسهم وبيوتهم وأهليهم من رجس الشرك ووصمة الوثنية.

روى البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق من طريق عاصم بن عمر بن قتادة قال: كان معاذ بن عمرو بن الجموح قد شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان أبوه عمرو سيدًا من سادات بني سلمة وشريفًا من أشرافهم، وكان قد اتخذ

في داره صنمًا من خشب يقال له مناة -وهذه خصيصة من خصائص السيادة الجاهلية- فلما أسلم فتيان بني سلمة، معاذ بن جبل، ومعاذ بن عمرو، وغيرهما كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة، وفيها عذر الناس -أي ما يخرج منهم من الفضلات- منكسًا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على إلهنا في هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من يصنع هذا بك لأخزينّه، فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك، فلما ألحُّوا عليه استخرجه من حيث ألقوه فغلسه وطهّره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلّقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك، فلما أمسوا ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عذر الناس، وغدا عمرو فلم يجده فخرج يتبعه حتى وجده في البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت، فلما رآه أبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه، فأسلم عمرو بن الجموح فحسن إسلامه، وقال حين أسلم، وعرف من الله ما عرف يذكر صنمه:

تالله لو كنتَ إلهًا لم تكن
أنت وكلبٌ وَسْطَ بير في قرن

في أبيات تبين ما أضاء الله من بصيرته، وما هداه إليه من الإيمان، وما أنقذه من ضلالة الجاهلية، وأوضار الشرك، ورجس الوثنية.

وفي هذه القصة دلالة على ما كان قد بلغت إليه تفاهة مهزلة الوثنية وسخافة التفكير المشرك، كما تدل على ما صنعه الإيمان في قلوب الأنصار، ولا سيما شبابهم وفتيانهم الذين فُتِحت عيون بصائرهم على نور العقيدة التوحيدية بأول لقاء رأوا فيه النبي ﷺ وسمعوا منه من آيات القرآن المجيد، وما دعاهم إليه من الهدى والخير.

الإذن بجهاد الدفاع ورد الاعتداء:

وكان أول ما أنزل الله تعالى في جهاد الدفاع ورد الاعتداء قوله تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ (الحج: ٣٩، ٤٠)

لأن المسلمين قد تغير وضعهم الاجتماعي بقدوم الأنصار إلى مكة ولقاء رسول الله ﷺ لهم المرة بعد المرة، والعام بعد العام، ومبايعتهم له ﷺ بيعة بعد بيعة، وأصبحوا في منعة وقوة يستطيعون بها الدفاع عن أنفسهم وحرية عقيدتهم وإسلامهم ودعوتهم إلى الحق، ومواجهة أعدائهم بالقتال لرد عدوانهم.

وهذا الإذن الدفاعي لم يكن إيجابًا للجهاد القتالي، بل هو كما سماه الله تعالى إذنٌ لدفع العدوان يتقلد تطبيقه كل قادرٍ على ردِّ ظلم الظالمين من الأفراد والجماعات، وليس فيه رفع لما تخلَّق به المؤمنون من التسامح والتغاضي عن سفاهة السفهاء وجهالة الجاهلين، وإيذاء المؤذين؛ لأنه إذْنٌ لم يتجاوز مرتبة الجواز لما كان ممنوعًا عليهم، والجواز لا يرفع التفضل والإحسان وهما من أخص أخلاق أهل الإيمان في شرعة الإسلام.

وهذا هو ظاهر الآية في تعليل الإذن للمؤمنين بدفع العدوان بأنهم ظُلِموا وهم مستضعفون، وأن الله تعالى أقدرهم بما تفضل به عليهم جزاء صبرهم واحتمالهم وتسامحهم بما جعل لهم من نصراء يمنعونهم من الظلم، ومهجر يأمنون فيه، ويرشح ذلك إبهام المأذون فيه للمؤمنين ليكون محطًا

للاجتهاد والتقدير للمناسبات وما يحتف بها، وحساب عواقبها بالنسبة للدعوة إلى الله عز وجل.

وقد كان المسلمون الأولون مأمورين بالكف عن رد العدوان، ومأمورين بالصفح والمغفرة والعفو عن جهالة الجاهلين، والصبر على إيذاء المؤذين؛ لأن القوى الإسلامية كانت لا تزال في مهدها لم تشتد سواعدها للمقاومة والدفع، وكانت مشتتة لمّا تتجمع بعدُ في إطار نظام موحد، وكانت الضرورة المقتضية لعدم إثارة المعارك الجانبية، لا تزال قائمة في مجتمع مكة الظلوم، تتطلب الكثير من الصبر والاحتمال وضبط الأعصاب الثائرة، ليسد المؤمنون بصبرهم واحتمالهم ما ينزله بهم من فادح البلاء طغاة الفجور الوثني، والعتو المادي من المشركين- باب فتنة داخلية، لو اشتعلت نيرانها بمقابلة العدوان بمثله لعصفت بالمسلمين قبل أعدائهم؛ لأنهم كانوا قلة مستضعفة، وكان الكثير منهم من أبناء البيوتات القرشية؛ مما جعل أهليهم وعشائرهم متمكنين من تعذيبهم وصب صنوف البلاء عليهم، فلو لم يعتصم المسلمون بصبرهم واحتمالهم، وعدم المسارعة لرد العدوان لكان من أول نتائج هذه الفتنة الجائحة وقف سير الرسالة، وتعريض شباب الإسلام من السابقين الأولين للإفناء

تحت سياط العذاب في داخل البيوت بين شراسة العشائر وضراوة المتجبرين، ولا سيما أنَّ كَلَب الطغاة وشنفهم في تعذيب المؤمنين قد ضوعف واشتد إثر البيعة الكبرى للأنصار[٤]، وتواصي الطغاة بتضييق الخناق والافتنان في تعذيب المؤمنين، خشية أن ينفلتوا من قبضتهم إلى الهجرة لإخوانهم الأنصار الذين تخشاهم قريش، وتقدِّر لهم قدرتهم في الحرب والقتال.

ولكن هذه الشدة الفاجرة فتحت أعين المستضعفين المعذبين إلى التطلع لإخوانهم الأنصار في بلدهم (يثرب)، وقد كان حالهم وما يلقون من التعذيب وألوان البلاء يرمض رسول الله ﷺ ويحزنه أشد الحزن، ولا يجد سبيلًا للدفاع عنهم وحمايتهم، بيد أنه ﷺ كان منذ تمت له بيعة العقبة الكبرى يترقب الفرج يأتي منزلًا من عند الله، وكان يتطلع إلى مخرج ينقذ به أصحابه من هول ما يلقون من شدائد المحن، وقد أطمعهم الإذن في رد الاعتداء ودفع العدوان، فأدخل الأمل في قلوبهم، وبدا مَنْ قَوي منهم على رد العدوان يرده بأقوى منه وأشد، وخشي رسول الله ﷺ أن يندفع الفجّار المتجبرون

(٤) الشنف: شِدة البغض. (المجلة)

من أعداء الإسلام وأحلاس الشرك وبأو الغرور إلى قاصمة الظهر[٥]، فيحاط بأصحابه في إطار صور فنائية، ففتح لهم باب الهجرة وقال لهم: «إني أريت دار هجرتكم»، وأمرهم ﷺ بالخروج إلى يثرب والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم أنصار الله، وأنصار دينه ورسوله وقال لهم: «إن الله قد جعل لكم إخوانًا، ودارًا تأمنون بها».

وكان النبي ﷺ يقدِّر حق التقدير ما في البيعة الكبرى من عهود صادقة على بذل كل ما يملك الأنصار من قوى روحانية ومادية وتضحيات بالأرواح والأموال في سبيل الوفاء ببيعتهم وعهودهم التي عقدوها مع رسول الله ﷺ، على أنهم حرب لمن حارب، وسلم لمن سالم من جميع أهل الأرض عربًا أو عجمًا.

كما كان رسول الله ﷺ يقدِّر حق التقدير ما في هجرة أصحابه من السابقين الأولين من المستضعفين المعذبين في مكة إلى إخوانهم الأنصار من توحيد جهود المسلمين وتجميع قواهم في مواجهة الطغيان الأحمق المغرور، والفجور الأرعن المفتون اللذين دأبت عليهما قوى الشر من المشركين.

(٥) الحِلس: ما يُبسَط من جلدٍ وغيره على الأرض أو على ظهر البَعير، ليُجلَس عليه، ويستعار للملازمة، فيقال: هو حِلس كذا، أي: لا يفارقه. والبأو: الزهو والافتخار. (المجلة)

ومن هنا كانت هذه البيعة الكبرى بيعة لا تعرف المداهنة، ولا تعترف بالمهادنة؛ لأنها بيعة على الحرب بين الحق والباطل، الحق في أعم وأضوأ صوره، والباطل في أحط وأرذل أشكاله، وهي حرب بين الدعوة إلى الله تعالى وتوحيده، وبين سماجة الشرك وبلادة الوثنية، حرب بين الظلم الظلوم والعدل المواسي الرحيم، حرب بين الحرية الفاضلة والاستعباد المستكبر العنيد، حرب بين الروحانية الشفيفة التي يشرق نور الإيمان من آفاقها والمادية الحاقدة المظلمة التي تغشى قلوب الطغاة من المشركين.

وكان الأنصار الذين بايعوا رسول الله ﷺ هذه البيعة الكبرى الفاصلة بين عهدين متباعدين يقدِّرون ما عاقدوا عليه رسول الله ﷺ من تعريض أنفسهم لأفدح البلاء، الموت فما دونه من محن الحياة، وكانوا يقدِّرون أنهم بايعوه على حرب الأحمر والأسود في سبيل نشر الدعوة إلى الله عز وجل، والذود عنها بكل قوة يملكونها، وإعلان كلمة الحق مدوية في آفاق الأرض وأقطارها لتكون كلمة الله هي العليا، وأنهم بايعوه ﷺ على منعه إذا قدم إليهم مما يمنع منه أعز ما تُبذل دونه الأرواح والأموال.

فإذا قلنا إن هذه البيعة في دوافعها وآثارها وواقعها التاريخي هي (فتح الفتوح) فإنما قلنا ونقول حقًا واقعًا في

حياة الإسلام، تشهد به الدلائل التاريخية في جهاد الإسلام، فهو حق لا تجوّز فيه، والتاريخ الإسلامي في تدرج وقائعه الجهادية يؤمن بذلك، ويعرف لهذه البيعة العظمى مكانها من سطوره التي كتبتها أقلام النصر المؤزر بمداد من النور والتضحية والفداء.

والقرآن الحكيم والسنة النبوية المطهّرة -وهما أصل الإسلام- بيّنا ذلك وسجّلاه في نصوصهما، فآية الإذن بالدفاع للذين يقاتلون بسبب ما وقع عليهم من الظلم الفادح، وإخراجهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، كانت أول آية نزلت لتفتح باب المدافعة للعدوان مع بقاء فضيلة التسامح، ثم أنزل الله أول ما أنزل بعد ذلك آية الانتصاف في القتال: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ (البقرة: ١٩٠) فهذا التناسق الذي جاءت به الآية قيّده النص في جانب إلزام المسلمين بأنه يجب أن يكون القتال (في سبيل الله) فإذا لم يكن القتال (في سبيل الله) لقصد إعلاء كلمة الله لا يكون قتالًا جهاديًا يُنْصَر به (الله) ولكنه يكون قتالًا دفاعيًا، يدفع به العدوان والاعتداء، فيكون من قبيل ما انطوى تحت آية الإذن في المدافعة ورد العدوان.

وآية الانتصاف هذه قيل إنها نزلت -في قول بعض المفسرين- بعد آية الترغيب في الجهاد إذا توافرت أسبابه، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١) التي نزلت لتأكيد البيعة الكبرى، وقد فرح بها الأنصار فرحًا شديدًا، وهي وإن كانت في نظام التلاوة موضوعة في سورة التوبة وهي من آخر ما نزل من القرآن فذلك لا يمنع أنها مكية النزول، وهذا كثير في القرآن، وإنما تحكمه المناسبات المعنوية في سياق الآيات في نظم التلاوة.

القتال لحماية العقيدة

ثم حسم أمر الجهاد القتالي بعد أن هاجر من هاجر من مكة إلى المدينة من السابقين الأولين، وتوحدت صفوف المسلمين، وقويت سواعدهم، واشتدت قناتهم، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٣) فهذا الأمر بالقتال غير مشروط إلا بشرط أن لا تكون فتنة للمؤمنين عن دينهم وعقيدتهم، تلك الفتنة التي كان يباشرها طغاة المشركين في صور بلغت النهاية في شناعة التعذيب، ومعنى هذا الشرط أن يُقْهر أعداء الإسلام

قهرًا يُذل غرورهم ويطامن من استكبارهم ويذهب بقوتهم، ويبدِّد شملهم، ويرعبل جماعتهم[٦]، فلا يملكون أسباب فتنة المؤمنين عن دينهم وعقيدتهم، وبهذا تتحقق وحدة الدين في ظل التوحيد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ بإذلال الشرك وأهله، واستخزاء الإلحاد وشيعته متواريًا وراء آفاق الفناء، ويبقى الإسلام، وهو الدين الحق وحده وهو دين الله الذي لا يُدان إلا به، ولا يعبد إلا بما شرعه من أحكام ونظم وآداب وأخلاق.

وليس هذا القتال المأمور به في هذه الآية الحاسمة قتال دفاع لرد العدوان كما في آية الإذن الدفاعي، ولا هو قتال انتصاف كما في آية ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٠) ولكنه قتال قهر للطغيان، وإذلال للعتو المتجبر والعناد المستكبر، وليّ لعنق الظلم الفاجر، وتحرير للعقل البشري من أغلال الجهالة المتبلدة في جمود التقليد لموروثات الآباء والأجداد، وبتر لسواعد الظلم الفاجر، والاستبداد الأثيم، والتحكم في مصائر الأفراد والجماعات، وتوجيه للحياة البشرية إلى آفاق العزة والكرامة، وميلاد

(٦) رَعْبَلَ اللحمَ: قطّعه، ورعبل الثوبَ: مزّقه. (المجلة)

جديد للإنسانية على يدي رسالة الإسلام، دين الله القويم، في مهاد كتابه الحكيم، وتسديد رسوله الصادق الأمين، ميلاد تتذوق فيه الإنسانية طعم الحياة الحرة المعزيزة الكريمة، وتشعر بحقيقة وجودها وقدرها بما جاءت به هداية الإسلام من نظم عادلة، وتشريعات حكيمة وأخلاق كريمة، وآداب رفيعة، وسياسات محكمة، وتوجيهات رشيدة.

أخرج ابن سعد في الطبقات عن عبادة بن الوليد، بن عبادة بن الصامت أن أسعد بن زرارة أخذ بيد النبي ﷺ فقال لقومه من الأنصار: أيها الناس، هل تدرون علام تبايعون محمدًا؟ إنكم تبايعونه على حرب العرب والعجم، والجن والإنس كافة، فقالت الأنصار: نحن حرب لمن حارب، وسِلْم لمن سالم، فقال أسعد بن زرارة: يا رسول الله اشترط علينا، فقال ﷺ: «تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وتقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، والسمع والطاعة، ولا تُنازعوا الأمر أهله، وتمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم وأهليكم؟» قالوا: نعم، وفي حديث عبد الله بن رواحة عند السيوطي في (الدر المنثور) من طريق محمد بن كعب القرظي وغيره، قال عبد الله بن رواحة لرسول الله ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال ﷺ: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به

شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فما لنا إن فعلنا ذلك؟ قال ﷺ: «الجنة» قالت الأنصار: ربح البيع، لا نُقيل، ولا نستقيل، فنزلت:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١)

ثم قال السيوطي في (الدر): وأخرج ابن المنذر من طريق عيّاش بن عقبة الحضرمي عن إسحاق بن عبد الله المدني، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ دخل على رسول الله ﷺ رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله نزلت هذه الآية؟ فقال ﷺ: «نعم» فقالت الأنصار: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل.

وضع آيات القتال مواضعها في الترتيب التدريجي:

وتنزيل آيات القتال في ترتيب نزولها على الوجه الذي قلناه هو ما يتفق مع طبيعة سير الدعوة في مراحلها، قال أبو حيان في (البحر): وأكثر علماء التفسير على أنها -أي

آيـة ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾- أول آيـة نزلت فـي الأمر بالقتال، أمر فيها بقتال من قاتل والكف عمن كف. وهذا لا ينافي ما روي عن أبي بكر: أن أول آية نزلت في القتال ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ﴾ لأن هـذه الآيـة ليـس فيهـا أمر بالقتال، ولكنها إذن بالقتال لدفع العدوان، والأولية فـي آيـة ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ ﴾ إنمـا كانت بالنسبة للأمر بالقتال.

وقد رتب الراغب مراتب الجهاد ترتيبًا بديعًا يتفق مع الواقع فقـال: أمـر الله أولًا بالرفـق والاقتصار على الوعـظ والمجادلة الحسنة، ثم أذن في القتال، ثم أمر بقتال من يأبى الحق بالحرب، وذلك كان أمرًا بعد أمر على حسب مقتضى السياسة.

وأصل ذلك عند ابن إسـحاق قال: وكان رسول الله ﷺ قبل بيعـة العقبة لم يؤذن له في الحرب، ولم تحلل له الدماء، إنما يأمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل.

وكانـت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عـن دينهم. ونفوهم من بلادهـم، فهم بين مفتون في دينه، ومعذّب في أيديهم، وهارب في البلاد فرارًا منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفي كل وجه.

فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامـة، وكذّبوا نبيه ﷺ وعذّبوا ونفوا من عَبَده ووحَّده وصدّق نبيه، واعتصم بدينه أذن الله عز وجل لرسـوله ﷺ في القتـال والانتصار ممن ظلمهم وبغـى عليهم، فكانت أول آية أُنزلت في إذنه له بالحرب، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهـم فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ (الحـج: ٣٩، ٤٠) إلـى قولـه: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ قال ابن إسـحاق في تفسـيرها أي إني أحللت لهم القتـال لأنهم ظُلموا، ولم يكن لهم ذنـب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الـزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، -يعني النبي ﷺ وأصحابـه رضي الله عنهم أجمعين- ثـم أنزل الله تبارك وتعالـى عليه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ أي حتى لا يفتن مؤمن عن دينه، وحتى يعبد الله لا يعبد معه غيره.

ولم يذكر ابن إسحاق في آيات ترتيب القتال قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ (البقرة: ١٩٠) وهي أسبق نزولًا وتلاوة من قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ (البقرة: ١٩٣) وقد بيّنا ذلك فيما ذكرناه من ترتيب آيات القتال إذنًا، وأمرًا مشروطًا، وأمرًا مُغَيًا وغير مشروط.

هجرة الصحابة من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة:

بعد أن تمت بيعة السبعين من الأنصار، وهي بيعة العقبة الكبرى التي سميناها بحق (فتح الفتوح) وكانت ثالثة بيعات الأنصار، التي نقلت الدعوة الإسلامية من مضايق الحياة ومنعرجاتها إلى وسيع آفاقها ومنفسحاتها، فكانت بيعة حرب العالمين أسودهم وأحمرهم في سبيل إعلاء كلمة الحق، ونصرة دين الله، ومنع نبيه ﷺ وأصحابه وحمايتهم، وافتدائهم بالأرواح والأموال، وهما أعز وأغلى ما يقع به الافتداء

- طابت نفس رسول الله ﷺ، كما جاء في حديث عائشة وأبي أمامة بن سهل الذي ذكره الزرقاني في شرح المواهب فقال:

لما صدر السبعون من عنده ﷺ طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة أهل حرب ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين، لما يعلنون من الخروج، فضيقوا على أصحابه وأتعبوهم، ونالوا منهم مالم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكوا للنبي ﷺ، فقال لهم ﷺ: «قد أُريت دار هجرتكم سبخة» ثم مكث ﷺ أيامًا، ثم خرج مسرورًا فقال: «قد أُخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد منكم أن يخرج فليخرج إليها» فجعلوا يتجهزون ويترافقون، ويتواسون، ويخرجون، ويخفون ذلك، فخرجوا أرسالًا، وفرادى، فاستقبلهم إخوتهم الأنصار أطيب استقبال وأكرمه، وأنزلوهم من أنفسهم منازل الحب والإيثار والوفاء والتكريم، وقد خلّد الله تعالى هذا الموقف الأكرم للأنصار، فأنزل فيه قرآنًا يُتلى ويُتعبّد به، وجعله أسوة في أكرم مكارم الأخلاق ومثلًا يُحتذى، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ (الحشر: ٩)

وإذا كان لهذه البيعة الكبرى (فتح الفتوح) هذا الأثر الغامر في تفريج كروب المسلمين المعذبين في مكة،

وكان لها من الفضل في تجمعهم، وتوحيد مجتمعهم وشد سواعدهم وصلابة قناتهم ما جعلهم قوة مرهوبة، يخافها أعداء الإسلام، وكان لها من إدخال البهجة على قلب رسول الله ﷺ ما جعله يظهر سروره لأصحابه ويبشرهم بأنه ﷺ قد أخبر بدار هجرتهم وهي يثرب دار الأنصار الذين بايعوه على أن يكونوا حربًا لمن حاربه وسلمًا لمن سالمه من العالمين - فقد كان لما سبقها من بيعات -كان عدد المبايعين فيها له ﷺ أقل من عدد من بايع في بيعة (فتح الفتوح) وهي البيعة الكبرى بيعة السبعين- أثر قوي، بعيد النفاذ، عميق الغور، قامت على دعامته بشائر الدعوة إلى الله في دور يثرب وعشائرها، حتى صار في كل دار من دور الأنصار ذكر لرسول الله ﷺ ولدعوته ورسالته، مما جعل بعض أباة الضيم من السابقين للإسلام في مكة -قبل أن يؤذن لهم في القتال الدفاعي- يتطلعون إلى الهجرة حيث يأمنون على عقيدتهم وأنفسهم، فرأوا أن بلدة يثرب هي المكان الآمن الأمين الذي تطمئن فيه قلوبهم لأنه يجمعهم إلى إخوانهم في الإيمان من أنصار الله، وأنصار رسوله ودعوته.

هجرة أبي سلمة:

كان في صدر هؤلاء الأباة الشجعان أبو سلمة، عبد الله بن عبد الأسد المخزومي أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، أسلم بعد عشرة أنفس، وهو أحد ذوي الهجرتين: هجرة الحبشة، وهجرة المدينة المنورة، أبت عليه شجاعته ورسوخ إسلامه أن يُسِر هجرته ويستخفي بها، بل هاجر مستعلنًا تحت سمع وبصر قومه، الذين كانوا ينالون منه ويؤذونه، ويمنعه إسلامه أن يرد عليهم عدوانهم عليه؛ لأن السابقين إلى الإسلام كانوا مكفوفين عن الانتصاف من خصومهم ورد اعتدائهم، مأمورين بالصبر والعفو والاحتمال السمح المتكرم، وقد كانت هجرة أبي سلمة إلى المدينة المنورة قبل بيعة العقبة الكبرى بنحو سنة.

ومن هنا كانت قصة هجرة أبي سلمة، وهجرة زوجه السيدة النبيلة أم سلمة التي شرّفها الله بعد استشهاد أبي سلمة فصارت أمًا للمؤمنين، إذ تزوجها رسول الله ﷺ - مثلًا مضروبًا ونموذجًا يحتذى، وأسوة تؤتسى في مواقف الشجاعة وقوة العقيدة والوفاء.

قال ابن إسحاق: فحدثني أبي إسحاق بن يسار عن سلمة بن عبد الله بن عمر بن أبي سلمة، عن جدته أم سلمة زوج النبي

ﷺ قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبْتَنا عليها، أرأيتك صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟.

قالت أم سلمة: فنزعوا خطام البعير من يده فأخذوني منه، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة، فقالوا: لا، والله لا نترك ابننا عندها إذ انتزعتموها من صاحبنا.

فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففرقوا بيني وبين زوجي وبين ابني، فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أُمسي سنة أو قريبًا منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي، أحد بني المغيرة، فرأى حالي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها، وبين ولدها؟ فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، ورد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حِجْري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما

معي أحد من خلق الله، فقلت: أتبلّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي.

حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أوما معك أحد؟ فقلت: لا والله، إلا الله وبني هذا. قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلًا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحطّ عنه ثم قيّده في الشجرة، ثم تنحّى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلًا - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

فكانت أم سلمة -رضي الله عنها- تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابها ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.

وقد صدقت رضي الله عنها، فما قاسته في التفريق بينها وبين زوجها، وما رأته في نزع ابنها من حجرها حتى خلعت يده، وما لزمته من خروجها إلى الأبطح نهارها تبكي سنة أو قريبًا منها، أمور عظيمة، لا يتعاظمها إلا احتمالها بالصبر عليها، وقد احتملت وصبرت صبرًا جميلًا حتى قيّض الله لها فرجًا.

وما رأته من عثمان بن طلحة العبدري، وهو مشرك - وليس من بيتها بيت آل المغيرة ولا من عشيرتها وقبيلتها بني مخزوم - من كرم النفس، ونخوة الرجولية، وتحمل المشقة البالغة في سبيل النجدة، وفتوة المروءة، أخلاق لا تجتمع إلا في الرجل بعد الرجل، وفضائل لا توجد إلا في الأكرمين أحسابًا، وقد منّ الله تعالى على عثمان بن طلحة العبدري بنعمة الإسلام فأسلم إسلامًا كريمًا في هدنة الحديبية، وكان ثالث ثلاثة من الأبطال الذين اتفقوا على الهجرة إلى الرسول ﷺ: وهم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة، فلما رآهم رسول الله ﷺ قادمين عليه مسلمين قال: «رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها» وإلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة بن أبي عثمان بن أبي طلحة دفع رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة وقال: «خذوها تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم» وهي إلى اليوم لا تزال في أيدي بني شيبة.

ثم تتابعت أفواج المهاجرين إلى المدينة تتأممها أرسالهم ويقصدها وحدانهم، فالرجل وأهله، والرجل وصحبه، والرجل وحده، يجدّون في سيرهم، ويجتهدون في تحملهم، ويخفون نأمتهم[٧]، ويستسرون بحركتهم، يركبون متن الليل سُرى، ويناهضون الشمس ضحى، ويسابقون النجوم وهي تجري في أبراجها دجى، وكان فيهم من أوعبوا رجالًا ونساء، صغارًا وكبارًا، وغلقوا أبواب دورهم في مكة هجرة إلى الله ورسوله، وقد ذكر ابن إسحاق سبعة عشر رجلًا، وثمان نساء من مهاجريهم.

ومن أشهر هؤلاء في تاريخ الهجرة وأحداثها بنو غَنْم بن دودان آل عبد الله بن جحش، أخي أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، وفي ذلك يقول أبو أحمد عبد بن جحش وكان شاعرًا مجيدًا، مرهف الحس، ضرير البصر، وكان يطوف مكة، أعلاها وأسفلها وحده بغير قائد:

إلى الله وجهي والرسول ومن يقم
إلى الله يومًا وجهه لا يخيّب
دعوت بني غنم لحقن دمائهم
وللحق لما لاح للناس ملحب

(٧) النئيم: صوتٌ فيه ضعف، والفعل منه: نأم ينئم. (المجلة)

أجابوا بحمد الله لما دعاهم
إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا

قال ابن إسحاق: ولم يوعب أهل هجرة من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسوله ﷺ إلا أهل دور مُسَمَّوْن: بنو مظعون من جمح، وبنو جحشْ بن رئاب حلفاء بني أمية، وبنو البكير من بني سعد بن ليث حلفاء بني عديّ بن كعب، فإن دورهم غُلّقت بمكة، هُجرت ليس فيها ساكن.

هجرة عمر بن الخطاب في ركب من أصحابه:

ثم جاءت هجرة القوي الأمين فاروق الإسلام، وعز المسلمين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- في عشرين راكبًا، فيهم أخوه زيد بن الخطاب، وابنه عبد الله بن عمر، وعيّاش بن أبي ربيعة الملقَّب بذي الرمحين لشجاعته.

قال الزرقاني في شرح المواهب: أخرج ابن عساكر وابن السمان في الموافقة عن علي -رضي الله عنه- قال: ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا متخفيًا إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإنه لما همّ بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتفض يُدْنه - أي أخرج أسهمًا من كنانته - وجعلها في يده للرمي بها، واختصر عنزته - أي حملها مضمومة إلى

خاصرته - ومضى قبل الكعبة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أتى المقام فصلّى ركعتين، ثم وقف على الحلق، حلقة حلقة، واحدة واحدة، فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، أو يؤتم ولده، أو ترمل زوجته فيلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه أحد من أهل الحِلَق.

وفي حديث عبد الله بن عمر عن أبيه عند ابن إسحاق، قال عمر: اتعدنا لما أردت الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاصي التناضب من أضاة بني غفار فوق سرف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبس، فليمض صاحباه، قال عمر: فأصبحت أنا وعياش عند التناضب وحُبس هشام، وفُتن فافتتن.

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عيّاش، وكان أخاهما لأمّهما وابن عمهما حتى قدما المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة فكلما عيّاشا، وقالا له: إن أمك قد نذرت ألاّ يمسّ رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرقّ عياش لأمه، فقلت له: إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حرُّ مكة لاستظلت، فقال عياش: أبّر قسم

أمـي، ولي هناك مال فآخـذه، فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثـر قريش مـالًا، فلك نصف مالي ولا تذهـب معهما، فأبى علـيّ إلا أن يخـرج معهمـا، فلما أبى إلا ذلك قلـت له: أما إذْ قد فعلـت ما فعلت فخذ ناقتي، فإنها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرهـا، فإن رابك من القوم ريب فانـجُ عليها، فخرج عليها معهما حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: يا أخي، والله لقـد اسـتغلظت بعيـري هذا، أفـلا تعقبني علـى ناقتك هـذه؟ قال: بلى، فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما اسـتووا علـى الأرض عدوا عليه، فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة نهارًا موثقًـا، ثـم قالا: يا أهل مكـة هكذا فافعلوا بسـفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا.

وكان رسـول الله ﷺ -كما فـي الصحيحين عن أبي هريرة - يدعو لعيّاش وللوليد بن الوليد، وسـلمة بن هشام في قنوت صـلاة العتمـة يقـول: «اللهم أنـج الوليد بـن الوليـد، اللهم أنج سـلمة بن هشـام، اللهم أنـج عيّاش بن أبـي ربيعة، اللهم أنج المسـتضعفين مـن المؤمنيـن» الحديث، قـال ابن القيم فـي الهدي: قال أبو هريـرة: وأصبح ذات يـوم فلم يدع لهم، فذكرت ذلك له، فقال: «أوما تراهم قد قدموا؟».

شجاعة الوليد بن الوليد:

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به أن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينـة: «من لي بعيّاش بن أبي ربيعة، وهشـام بن العاص؟» فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك بهما يا رسـول الله، فخرج الوليد بن الوليد إلى مكة مسـتخفيا، فلقي امرأة تحمل طعامًـا، فقال لها: أيـن تريدين يا أمة الله؟ قالـت: أريد هذين المحبوسـين، تعنيهما، فتبعها حتى عـرف موضعهما، وكانا محبوسـين في بيت لا سـقف له، فلما أمسـى تسوّر عليهما، ثـم أخذ مروة فوضعها تحت قيديهما[٨]، ثم ضربهما بسـيفه فقطعهما ثم حملهما على بعيره، وسـاق بهما حتى قدم بهما على رسول الله ﷺ المدينة.

وهذه الرواية مخالفة بالنسبة لهشام بن العاص لحديث عبد الله بـن عمـر عن أبيه الذي جاء فيه: فكنّـا نقول: ما الله بقابل ممـن افتتن صرفًا ولا عدلًا، ولا توبة، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لَبلاء أصابهم، وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم.

فلمـا قـدم رسـول الله ﷺ المدينـة أنـزل الله تعالـى فيهم وفـي قولنا وقولهم لأنفسـهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ

(٨) المروة: حجارة صلبة تستخدم للقداح. والجمع مَرْو. (المجلة)

أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الزمر: ٥٣ - ٥٥)

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفة وبعثتها إلى هشام بن العاص، قال هشام: فلما قدمت عليّ خرجت بها إلى ذي طوى- وعند السهيلي ففاجأتني وأنا بذي طوى - فجعلت أصعّد بها وأصوّب لأفهمها، فقلت: اللّهم فهّمْنيها، فعرفت أنها إنما نزلت فينا، كما كنا نقول في أنفسنا ويقال فينا، فرجعت فجلست على بعيري، فلحقت برسول الله ﷺ.

وفي هذه الرواية أن الوليد بن الوليد استجاب الله فيه دعاء رسول الله ﷺ فأنجاه قبل أخويه، وكان هو سببًا في إنجائهما، وهكذا كان الإخاء الإيماني يفرض على أهله التعاون والمواساة في سبيل عقيدتهم، وافتداء دينهم بأرواحهم.

هجرة صهيب:

وكان ممن هاجر وحده وفدى نفسه وعقيدته وهجرته بجميع ما له، -وكان ذا مال- صهيب بن سنان المشهور بصهيب الرومي، وهو عربي صليبة ومن بيت رفيع في قومه، ناله سباء في الروم وهو صغير، فأخذ لسانهم فعُرف بذلك، قال ابن عبد البر في الاستيعاب:

وهو نمري، من النَّمِر بن قاسط، لا يختلفون في ذلك، ثم قال ابن عبد البر: وفي كتاب البخاري عن محمد بن سيرين قال: كان صهيب من العرب، من النَّمِر بن قاسط، وقال موسى بن عقبة، قال ابن شهاب: وممن شهد بدرا مع رسول الله ﷺ من النَّمِر بن قاسط صهيب بن سنان.

ذكر ابن كثير في البداية عن الحافظ أبي بكر البيهقي بسنده إلى سعيد بن المسيب عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ «أُريتُ دار هجرتكم سَبْخة بين ظهراني حرتين، فإما أن تكون هجر، أو تكون يثرب» قال صهيب: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخرج معه أبو بكر، وكنت قد هممت معه بالخروج، فصدني فتيان من قريش، فجعلت ليلتي تلك أقوم، لا أقعد، فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه- ولم أكن

شـاكيًا - فناموا فخرجت، ولحقني منهم ناس بعدما سـرت، يريـدون ليردوني، فقلت لهـم: إن أعطيتكم أواقي من ذهب، وتخلـوا سـبيلي، وتوفـوا إلـيّ، ففعلـوا، فتبعتهم إلـى مكة، فقلـت: احفروا تحت أسـكفة الباب فإن بهـا أواقى، واذهبوا إلى فلانـة فخذوا الحلتين، فخرجت حتى قدمت على رسـول الله ﷺ بقُباء قبل أن يتحول منها، فلما رآني قال: «يا أبا يحيى ربح البيع» فقلت يا رسول الله ما سبقني إليك أحد، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام.

وذكر ابن كثير عن ابن هشام قال: وذُكر لي عن أبي عثمان النَّهْدي أنه قال: بلغني أن صهيبًا حين أراد الهجرة قال له كفار قريـش: أتيتنا صعلوكًا فقيرًا لا مال لـك، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال صهيبٌ: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإنـي جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب».

وقـال الحافظ ابن حجر فـي الإصابة: يُقـال إن صهيبًا لما هاجر تبعه نفرٌ من المشركين فقال لهم: يا معشر قريش إني مـن أرماكـم، ولا تصلون إليّ حتـى أرمَيكم بكل سـهم معي، ثم أضربكم بسـيفي، فـإن كنتم تريدون مالـي دللتكم عليه،

فرضوا، فعاهدهم ودلَّهم على ماله، فرجعوا فأخذوا ماله، فلما جاء إلى النبي ﷺ قال: «ربح البيع» فأنزل الله:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٠٧)

بيد أن الحافظ ابن حجر جزم في الإصابة بأن صهيبًا -رضي الله عنه- هاجر في رفقة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في آخر من هاجر من أصحاب رسول الله ﷺ.

علي رضي الله عنه يلحق بالنبي ﷺ بعد تنفيذ وصيته:

ولا شـك أن هجرة علي -رضـي الله عنه- كانت بعد هجرة رسـول الله ﷺ. حكـى البيهقـي في الدلائل عن ابن إسـحاق قال: آخر مَن قدم المدينة من الناس لم يُفتن في دينه أو يُحبس علي بن أبي طالب، وذلك أن رسـول الله ﷺ أخره بمكة وأمره أن ينـام على فراشـه، وأجّله ثلاثًا، وأمـر أن يؤدي إلى كل ذي حق حقه، ففعل ذلك عليٌّ ثم لحق برسول الله ﷺ.

وقـد أدرك علـيّ -رضي الله عنـه- النبي ﷺ بقُبـاء لما يَرِم منهـا[٩]، وكان رسـول الله ﷺ قـد نزل على كُلثـوم بن الهدم

(٩) أي: لم يغادرها، من رام يَريم بمعنى برح وفارق. (المجلة)

أخي بني عمرو بن عوف، وكان ﷺ يجلس للناس في بيت سعد بن خيثمة، وكان سعد عزبًا، لا أهل له، وكان منزله منزل العزاب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين.

قال ابن إسحاق: وأقام عليّ -رضي الله عنه- بمكة ثلاث ليال وأيامها يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله ﷺ فنزل معه على كُلثوم بن هدم بقباء.

وفي هذه المدة القصيرة وقعت له هذه الحادثة الطريفة التي يرويها عنه ابن إسحاق، فيقول: فكان علي بن أبي طالب يقول: كانت بقباء امرأة لا زوج لها مسلمة، فرأيت إنسانًا يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها فتخرج إليه، فيعطيها شيئًا معه فتأخذه.

قال علي -رضي الله عنه-: فاستربت بشأنه، فقلت لها: يا أمة الله، مَن هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة، فتخرجين إليه، فيعطيك شيئًا، لا أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة، لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف بن وهب، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا. فكان عليّ

-رضي الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف حتى هلك عنده بالعراق.

استكمل المجتمع المسلم قوته ليستقبل بالمدينة سيد المرسلين:

استوعبت دار الهجرة عامة المؤمنين من المهاجرين والأنصار قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها، ولم يبق بمكة يوم أن هاجر رسول الله ﷺ إلا مفتون في دينه أو محبوس حيل بينه وبين الهجرة لينضم إلى إخوانه المؤمنين وقد منّ الله على بعض هؤلاء فتخلّصوا بعد هجرة رسول الله ﷺ من الفتنة، فتاب الله على المفتونين في دينهم، وعادوا إلى إيمانهم وعقيدتهم، وهاجروا لينضموا إلى إخوانهم المؤمنين، وقوّى الله المستضعفين فأنجاهم من أيدي الظالمين المشركين، وهاجروا إلى إخوانهم ليحملوا لواء الدعوة إلى الله تعالى في صفوف جند الله من المجاهدين.

واستكمل المجتمع الإسلامي في دار الإيمان عناصر القوة، واستعدت المدينة المنورة برسوخ إيمانها، وبقينها ووحدة مجتمع الإيمان فيها، وقوته المادية والمعنوية لتستقبل أخطر وأعظم حادث في تاريخ الحياة.

كانت الهجرة النبوية نقطة تحول في تاريخ الحياة:

كانت الهجرة النبوية من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة أعظم حدث حوّل مجرى التاريخ، وغيّر مسيرة الحياة ومناهجها التي كانت تحيا بها، وتعيش محكومة بها في صورة قوانين ونظم وأعراف وعادات وأخلاق وسلوك للأفراد والجماعات، وعقائد وتعبدات وعلم ومعرفة، وجهالة وسفه، وضلال وهدى، وعدل وظلم.

وقد كانت مكة مطلع شمس التوحيد في رسالة الإسلام، وملتقى آفاق السماء بأقطار الأرض، ومشرق نور الهداية، ومهبط أول وحي إلهي ختمت به رسالة الخلود، ومنزل أول كلمة شُرّفت بها الحياة، وأول خطاب شرف به أكرم خلق الله على الله محمد خاتم النبيين ﷺ.

تلك الكلمة الأبدية الجامعة لصنوف الخير مادة ومعنى (اقرأ)، التي عنونت رسالة الخلود بأعظم ما أشرقت به الحياة من نور وهداية، منذ كانت الحياة، إذْ جعلت من العلم بأعم معانيه وأشمل حقائقه الدعامة الأولى، والركيزة العظمى التي قام عليها بناء رسالة الخلود صرحًا أشم شامخًا.

هذه الرسالة العامة زمانًا، الشاملة مكانًا، المحيطة أجيالًا، الشافية قلوبًا، المشرقة أرواحًا، الكافية هديًا ورشدًا، الباقية حسًّا ومعنى، البانية لحضارات الخير الناضرات، الفاتحة لأبواب السعادة في الدارين، المنبِّهة للإنسانية من غفلاتها، الموقظة لها من سباتها، المحررة للعقل البشري من ربقة الجمود، النافخة فيه روح الحيوية الثائرة، السالكة به سبيل النظر الباحث في عناصر الكون، ليعرف منه ما لم يكن يعرف من قبلها، ويعلم من أسراره ما لم يكن يعلم من غيرها الغالبة القاهرة، المؤيدة بروح الله، الظافرة بصادق وعده وتبشيره ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ (العلق: ٣ - ٥)

وصارت المدينة المنورة بإشراق نور النبوة بكل معالمها وآياتها مسرى هذه الرسالة الخاتمة الخالدة إلى آفاق العالم شرقه وغربه، شماله وجنوبه، غيثًا مغيثًا أسال وديانها وشعابها بمنهمر من الخير الذي أبت مكة بملئها العتيِّ العنيد أن تتقبله استكبارًا في الأرض بغير حق، وكانت حرية أن تعبّ من سلسبيله عبًّا، تروي به ظمأها، وتبلل بنداه نشف ريقها؛ لأنها كانت صديانة الروح، محرقة الكبد، يكاد يقتلها أوار

العطش أو هي في نار الشرك والوثنية، تخور كما تخور ثيران الفيافي وقد منعت الورود إلى غدران الماء.

لقد حولت الهجرة النبوية عنها روادف هذا النمير السلسل إلى المدينة المنورة، فجرى في أوديتها أنهارًا، سبح في غمراتها، وغاص في أعماقها المذخورون في سجل الأزل لحمل أمانة الحقيقة الكبرى في قيادة الإنسانية إلى آفاقها المقدورة لها في لوح العلم الإلهي المحيط بما كان وما يكون، رافعين ألوية الحق والخير والهدى، حاملين مشاعل النور ليضيئوا للسالكين مهايع الرشد - من الأكرمين السابقين الأولين الذين وفدوا مهاجرين إلى طيبة الطيبة دار الإيمان، ومن الأنصار الذين باعوا أنفسهم لله عز شأنه يوم أن بايعوا رسول الله ﷺ على أن يكونوا حربًا لمن حارب وسلمًا لمن سالم، يفدونه ويفدون ما جاء به من الحق والهدى، يبلِّغونه إلى الأحمر والأسود ما قامت أفئدتهم بين جوانحهم عامرة باليقين، وما ثبتت سيوفهم في أيديهم لتقويم عوج العناد في أخادع المستكبرين من أهل العتو والفجور.

وقد وفوا بما عاهدوا الله عليه، وصدقوا رسول الله ﷺ فيما بايعوه عليه فكانوا كتيبة الجهاد القوية القاهرة، وكانت مدينتهم قلعة الإسلام الحصينة، وحصنه القوي الأمين.

تحقيق يكشف غموض بعض الوقائع والروايات:

رجفت مكة - وقد تجاوبت شوامخ رواسيها بأصداء البيعة الكبرى بيعة الفتح الأكبر (فتح الفتوح) في دنيا الإسلام - رجفة تزايلت من هول وقعها أوصالها، وتزلزلت لشدة نكايتها بطواغيتهم أركانها.

تلك البيعة التي ختمت للرسالة مرحلة، وفتحت بها مرحلة، ختمت مرحلة كفاح مرير غير متوازن في عنصريه المتكافحين، عنصر العتو الفاجر ممثلًا في مشركي مكة وملئها، وعنصر الإيمان الموحد ممثلًا في القلة المسلمة من السابقين الأولين، يقودها رسول الهدى محمد ﷺ.

فالقلة المسلمة، كانت في مدى هذه المرحلة بين شقي الرحى تطحنها الأحداث ويأخذ منها البلاء والتعذيب كل مأخذ وهي صبور محتسبة لا ترد اعتداء، ولا تملك منجى ولا تجد مهربًا مروعة مفزعة في غدوها ورواحها، وصحوها ونومها.

والكثرة العاتية من طواغيت الشرك كانت تتعامل مع هذه القلة المسلمة بقلوب قُدّت من الصخر والحديد، تصب صنوف العذاب عليهم صبًا، لا ترحم ولا تمل، يضحكها أنين الألم يخرج مع زفرات ضحاياها، ويسكرها منظر

الدماء تنساب من جراحهم، والسياط على أجسامهم نازلة صاعدة، ويغيظها صبرهم على العذاب، فيزداد عليهم حقدها وحنقها، فتفتن في ابتداع أفانين الفوادح وفنون التعذيب، تصهرهم بها صهرًا، فإذا انفلت بعضهم في غفلة سياط العذاب إلى مهرب آمن لاحقتهم برسلها ورُشاها لتردهم إلى جحيم الفجور، وعتو الاستكبار الظلوم، حتى قضى الله أمره، ومنّ على المستضعفين في الأرض، ومكّنهم، وجعلهم أئمة يهدون بأمره، وقادة للإنسانية، ليخرجوها من الظلمات إلى النور، فكانوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لا يحقدون على من مضى بما مضى، سليمة صدورهم، لا تنطوي على حزازات وأضغان، نسوا الماضي القاسي المرير، وداسوا على ما كابدوه فيه من شدة وقهر وطغيان بأقدام التسامح، فلم يذكروه إلا ليحمدوا الله على فضله عليهم.

وفتحت بيعة (فتح الفتوح) مرحلة انطلاق بالدعوة إلى الله في نضال متحرر من الخوف والرهبة لا تعوقه عن سيره قوى الشر التي كانت تترصده بالقهر والجبروت، فهو انطلاق نضالي يستهدف تبليغ رسالة الحق والهدى، وتأسيس نظام يجمع شعوب الأرض في إطار العقيدة الموحدة والإخاء الإنساني الكريم.

وقد كانت بيعة (فتح الفتوح) حجر الزاوية في بناء المجتمع الإسلامي على ركائز القوة المادية والمعنوية، وهي القوة التي أرعبت طواغيت مكة وملأت قلوبهم هلعًا، وهزّت كيانهم جزعًا، واستفزّت عقولهم فزعًا، فاختلّت لديهم موازين المقاومة لهذه القوة العارمة الجديدة التي أحاطت محمدًا ﷺ ودعوته بسياج من المنعة التي لا تنال، بل وضعت في يده زمام السير بدعوته وتبليغ رسالته إلى آفاق عريضة، ليس لمكة وطواغيتها طاقة في موافقتها ولا في التعرض لسيرها؛ لأنهم يعلمون أن هذه البيعة التي أشجتهم فغصوا بشجيها كانت بيعة نسج خيوطها الوفاء والتضحية، أخذ فيها رسول الله ﷺ وأعطى، أخذ على بني قَيْلَة- أنصار الغد أوسهم وخزرجهم – وهم أبناء الحرب وأبطال الوغى، نهدوا بين أحضانها، ونُشِّئوا في ميادينها، وشبوا وشابوا تحت ظلال سيوفها.

أخذ فيها رسول الله ﷺ عليهم لربه ولنفسه، وأعطى فيها من نفسه بإذن ربه، أخذ فيها عليهم أن يحملوا لواء التوحيد، يعبدون الله، لا يشركون به شيئًا، ولا يخافون لومة لائم، ويرفعون راية الفداء والتضحية بالنفس والمال لحماية دعوة الحق، وتبليغ رسالة الإسلام، وأعطاهم ﷺ ما ثامنهم

به لله «الجنة» فباعوا رابحين، وبايعوا موقنين، لا يقيلون ولا يستقيلون.

ولم تكن مكة بطواغيت ملئها قط أهيب لقوم في العرب قاطبة، ولا أبغض لحربهم من هؤلاء الأبطال الغر الميامين الذين ظفر بهم رسول الله ﷺ في لحظة تحت جنح الظلام من ليالي التشريق، لحظة كتب فيها القدر الموفق تحول التاريخ البشري عن مسيرته الجاهلية إلى أَمَمٍ من طريق العلم والهداية، انتصبت على جوانبه منائر النور لتضيء للسالكين معالم الحق.

وموسم الحج يعج بحشود العرب القادمين إلى مكة وأسواقها ومحافلها من كل فج، ولم يكن في وفود قبائلهم وبيوتاتهم أحد إلا كان عنده ذكر لرسول الله ﷺ ولدعوته ورسالته، رجل أو امرأة، فتى في عنفوان تفتّيه، أو فتاة من وراء خدرها تختلس النظرات إلى جموع الوافدين إلى الموسم، وترهف آذانها إلى أصوات الحشود الصاخبة، تتسمع إلى الكلمات تتهاوى من أسلات الألسن في عصبية مجنونة، يختلط فيها زئير الغضب بعواء الذئاب إلى همس ذاهل مذهول، لا يدري صاحبه ما يقول، ولكنه يتسقط الكلمات من أفواه أصحابه ليتفهم ما يريدون، وما هم بمريدين شيئًا،

ولكنهم يتكلمون بما لا يوعون، ويهرفون بما لا يعرفون، زائغة أبصارهم، تائهة عقولهم، يُحِسُّون في موسمهم هذا شيئًا لا يعرفونه، ويشعرون بأمر لا يقدرونه، ويرون في جو الموسم غموضًا قاتمًا وظلامًا ينشر سواده المتجهم على مكة وطواغيت ملئها؛ بَيْدَ أنهم يلمحون من وراء سجف هذا الظلام لمعات برق هامس تتخلله، يضيء ويخبو، وإذا فاق الإصباح ينبئهم بالنبأ العظيم، ويخبرهم بالحق المبين، وأصبحت مكة في رجفتها الرادفة وقد صك آذانها صوت أجشّ عربيد ينادي ملأها بما انتزع قلوبهم من صدورهم: يا أهل مكة هل لكم في محمد والصبأة من بني قَيْلة قد أجمعوا على حربكم، وإذا بهذا الصائت المصوِّت أزب العقبة وشيطانها[١٠]، يصطرخ مدحورًا وهو يسمع قول النبي ﷺ يلاحقه في قراره: «أما والله يا عدو الله لأفرغن لك».

وجن جنون قريش، وفزع ملؤها مرعوبًا، تلتف سيقانه على سيقانه هلعًا، وتصطك أسنانه كالمقرور جزعًا، وراحوا يستكشفون سر رجفة مكة، وسر ظلامها، وسر وجوم الموسم وتجهمه، وقد ساخت أقدامهم في مواقفهم، وذهبوا

(١٠) أزبّ العقبة: اسم شيطان. (المجلة)

يستطيعون النبأ عن أشباههم ممن عسا في الكفر العنيد، والشرك البليد، والفجور العتيّ، والغرور المستكبر، متلطخًا بأقذار الوثنية وأرجاس الضلال من بقايا هامات نَخِرة، أَنِفَتْ سيوف البطولة اليثربية أن تجذّها حصدًا.

وكذب هؤلاء على هؤلاء، ثم ارتفعت شمس الحياة في الآفاق مشرقة مضيئة، وقد سالت بأعناق المؤمنين الأباطح، قافلين إلى يثربهم، فرحين بما آتاهم الله من فضله، مستبشرين بنعمة الله عليهم، يتذاكرون بيعتهم رسول الله ﷺ وما تتقاضاهم من استعداد لاستقبال قوافل التاريخ تحدوها حداة الإيمان في حياة جديدة جادة.

وعادت مكة من جباجبها بعد خيبتها خزيانة مخذولة[11]، تجر أذيال الخسران المبين، متسربلة بالذل والمهانة لتأتمر بمحمد ﷺ الذي بخع كبرياءها الأجوف في لحظة لا تكاد تعرف في حساب سير الفلك، ولكنها كانت لحظة غيّرت وجه الحياة.

ومكرت مكة في تآمرها ومكر الله بها والله خير الماكرين، وهاهي ذي ترى بملء أبصارها أصحاب محمد ﷺ الذين

(١١) يقال لموضع (منى) جباجب. انظر غريب الحديث لابن قتيبة. (المجلة)

كانت تذيقهم العذاب ألوانًا قد نجوا من قبضتها، وهاجروا إلى موئل القوة والمنعة والاستقرار والأمن فأوعبوا حتى لم يبق منهم في متناول طغيانهم إلا مفتون في دينه، أو محبوس عاجز عن الهجرة إلى إخوانه المؤمنين.

فهل تترك مكة بملئها وطواغيتها من ذوي الفجور العتي محمدًا ﷺ حتى يلحق بأصحابه وقد نزلوا أكرم منزل، وحلوا أمنع حصن، ليناصبها الحرب فيقضي عليها وعلى وثنيتها وزعامتها قويًا قديرًا، قضاء مبرمًا، لا تقوم لطغيانها بعدها قائمة وهو بين يديها تستطيع أن تأخذه بغدرها ومكرها وجبروتها

هذا ما لا تطيق مكة بملئها المستكبر العنيد الحقود صبرًا عليه، فلتسرع إلى كيدها تجمعه ومكرها تحوكه، وغدرها تبطش به، ولتحكم التدبير والعمل، ولتستعين بشياطين الإنس ومردة الأباليس قبل أن تفلت منها الفرصة، فيذهب كيدها إلى جحيم البوار، وتبوء بالخسران المبين.

لم يكن الفرار من التعذيب هو العامل الوحيد في هجرة الصحابة إلى الحبشة:

تحدثنا فيما سبق عن عوامل هجرة الصحابة ودوافعها في هجرتيهم إلى الحبشة وهجرتهم إلى المدينة المنورة،

وأوضحنا في أفانين ذلك الحديث أن عوامل هجرة الصحابة ودوافعها في موطنيها من المرحلة المكية كانت ترجع في أساسها إلى عوامل ودوافع سياسية، تستهدف نشر الدعوة وتبليغ الرسالة حيثما أمكن ذلك.

بيد أننا لم نستبعد أن يكون من عواملها ودوافعها التفكير أن يكون فريق من هؤلاء السابقين إلى حظيرة الإيمان بالله تعالى والتصديق برسالة رسوله محمد ﷺ بمنأى عن الاضطهاد وصنوف البلاء والتعذيب التي كان طواغيت الشرك وأخلاس الوثنية تصبها عليهم دون استشعار رحمة، وفي هؤلاء السابقين من المؤمنين بعض المستضعفين الذين لا يأوون إلى ركن شديد من العصبيات القبلية، أو الحمية البيئية، أو العزّة الأسرية يحميهم، ويرد عنهم ما ينزل بهم من شديد الأذى وفادح البلاء، وهم لا يستطيعون توقيًا للأذى ولا يستطيعون ردًا للاعتداء؛ لأنهم مأمورون بالكف والصبر والاحتمال، بل كانوا مأمورين بالعفو والصفح والمسامحة.

كما أننا لم نستبعد أن يكون من عوامل هجرة أولئك السابقين ودوافعها التفكير في الانتشار في أرجاء الأرض، بعيدًا عن جبروت الملأ في مكة لنشر الدعوة إلى الله عمليًا بأسلوب التأسي بهم في سلوكهم وآدابهم وحسن معاملاتهم،

وطيب معاشرتهم مع الوفاء والصدق والبر ولطف اللقاء ووداعة الخلق ولين الجانب وخفض الجناح مع العزّة والتعفف، ودعائيًا بأسلوب البشاشة، والكلمة الطيبة، والحكمة المنبهة، والموعظة الحسنة، والحب والرحمة والمواساة، واستشعار الإخاء الإنساني مما علمهم الإسلام وأخذوه عن أخلاق نبيهم ﷺ، مع إتاحة الفرصة بهذه الهجرة للتخفيف عن النبي ﷺ من أعباء شغل فكره بهم لتدبير مواطن التوقي لهم مما ينالهم من الأذى، وتقوية نفوسهم على الصبر واحتمال شدة العتو وقسوة الإيذاء، ليتفرغ ﷺ إلى واجبه الأول والأهم بتبليغ رسالته للناس في منازلهم ومحافلهم، ومجتمعاتهم في المواسم والأسواق.

وهذا أمر ما كان يمكن أن يتحقق، وتُتاح فرصته للنبي ﷺ لو كان أصحابه كلهم متجمعين حوله في مكة، وهم مكفوفون عن ردِّ الاعتداء مأمورون بالصبر والاحتمال، والعفو عن إساءة المسيئين، والصفح عن جهالة الجاهلين، وسفه السفهاء، وعتو الفاجرين.

ذلك أن النبي ﷺ كان يرمضه رؤية أصحابه يسامون سوء العذاب، وهو ﷺ مكفوف عن الدفع عنهم، ووقايتهم مما ينزل بهم في حياتهم غادين ورائحين، معلنين ومسرين؛ لأنه

ﷺ لم يؤذن له في القتال يرد به العدوان، وقد تحمل ﷺ في نفسه من شديد الأذى وسفه السفهاء ما لم يعمد إلى رده بمثله، وكان على ذلك قديرًا.

ولما عظم الخطر على أصحابه، وكاد يشغله حالهم عن القيام بواجب تبليغ رسالته أشار عليهم - أولًا - بالهجرة إلى الحبشة؛ لأن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، فهاجر إليها منهم قلة كانوا اثني عشر رجلًا، ثم تكاثروا في الهجرة الثانية حتى جاوزوا المئة رجالًا ونساءً، حينما ضاق الأمر واستحكم الخناق على الذين حوصروا في الشعب من بني هاشم والمطلب وغيرهم من المسلمين الذين دخلوا معهم ذلك الحصار الظالم.

كانت الهجرة إلى الحبشة من عوامل نشر الدعوة إلى الله:

وقد بيّنا أن الهجرة إلى الحبشة في مرّتيها كانت أول عامل من أقوى عوامل نشر الدعوة إلى الله في خارج الجزيرة العربية؛ لأن أولئك المهاجرين كانوا في كثرتهم من أبناء البيوتات وشبابها من قريش وغيرهم.

وقد جرى بينهم وبين النجاشي ملك الحبشة في مجالس حافلة ببطارقته ورءوس شعبه وزعمائهم حوار طويل مفصل

استهدف بيان دعوة الإسلام في عقائدها وأخلاقياتها، وآثارها على الأوضاع الجاهلية التي كان يعيشها العرب قبل دعوة الإسلام؛ مما كان له أكبر الأثر في نقل الدعوة من مجال مكة الضيق الخانق إلى مجال أوسع منطلقًا، وأصلح متنفسًا، وأنجح مقصدًا.

لقد كان من أعظم آثاره دخول الإيمان برسالة الإسلام إلى قلب عمرو بن العاص وهو مَنْ هو عقلًا ودَهْيًا[١٢]، وكان مجيئه إلى الحبشة رسولًا من قريش ليرد هؤلاء المهاجرين إليها لتفتنهم في دينهم وعقيدتهم، فالتقطه منها المهاجرون، وإن لم يُظهر إسلامه إلا بعد أمدٍ من ذلك.

قال أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب من طريق الواقدي قال: وفي سنة ثمان قدم عمرو بن العاص مسلمًا على رسول الله ﷺ، قد أسلم عند النجاشي، وقيل: إنه لم يأتِ من أرض الحبشة إلا معتقدًا للإسلام، وذلك أن النجاشي قال له: يا عمرو، كيف يعزب عنك أمر ابن عمك؟ فوالله إنه لرسول الله حقًا، قال عمرو: أنت تقول ذلك؟ قال النجاشي: إي والله، فأطعني، فخرج من عنده مهاجرًا إلى النبي ﷺ.

(١٢) الدَّهْي والدهاء بمعنى واحد. (المجلة)

وذكر الحافظ ابن حجر عن الزبير بن بكّار والواقدي بسندين لهما أن إسلام عمرو بن العاص كان على يد النجاشي وهو بأرض الحبشة.

ثم قال الحافظ: وأخرج البغوي بسندٍ جيد عن عمرو بن إسحاق أحد التابعين، قال: استأذن جعَفر بن أبي طالب النبي ﷺ في التوجه إلى الحبشة، فأذن له، قال عمرو بن إسحاق: فحدثني عمرو بن العاص قال: لما رأيت مكانه – أي مكان جعفر – قلت: لأستقلنْ لهذا ولأصحابه، فذكر قصتهم مع النجاشي، قال عمرو: فلقيت جعفرًا خاليًا – فأسلمت، وبلغ ذلك أصحابي فعنَّفوني وسلبوني كل شيء، فذهبت إلى جعفر، فذهب معي إلى النجاشي فردّوا عليَّ كل شيء أخذوه.

وقد أبى النجاشي رد المهاجرين، وازدادهم بعد الحوار إكرامًا، وأظهر إيمانه برسالة محمد ﷺ، وكتب إلى رسول الله ﷺ بذلك، وزوَّجه السيدة أم حبيبة أم المؤمنين أمهرها عنه، وأرسلها إليه مكرمة مع أخص قومها، وآمن معه من بطارقته وقومه مَن هدى الله قلبه للإيمان، كما فصَّلناه في مناسبته.

ولما مات أبو طالب عقب خروجه وقومه من حصار الشعب – وكان حفيًا بالنبي ﷺ، وسندًا لحمايته، ورد

الاعتداء عليه، والدفاع عن دعوته، وقد قام معه في ذلك بنو هاشم والمطَّلب حمية وعصبية قومية – اشتد عليه ﷺ الأمر، وتعاظم الخطر، وكان أصحابه رضوان الله عليهم قد كثروا، وازدادت قريش في عتوها وقسوتها، وأخذت عليهم مسالك الخروج من مكة، واشتدت في اضطهادها لهم، فشكى بعض المستضعفين إليه ﷺ ما يلقونه من عتو وفجور طواغيت قريش، وجاءت محنة الطائف بشراستها وأسوائها فطمَّ البلاء، واستشرى الخطر على الدعوة والقائمين على صراطها، وعاد ذلك يشغل رسول الله ﷺ عن متابعة نشر دعوته في المواسم وهي أعظم مجتمعات العرب، تفد إليها وفودهم، ويتخذون من أسواقها مُتجوَّلاتهم.

وكانت هذه المحن والشدائد تزيد في عزيمة رسول الله ﷺ قوة، وتزيده إيمانا برسالة نفسه التي تستهدف إخراج الحياة من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة، فليدأب داعيًا إلى الله، وليمض مبلِّغًا رسالة ربه، وخرج كما كان يخرج إلى مضارب القبائل، لا يلقى شريف قوم إلّا دعاه إلى الإيمان وعرض عليه الإسلام وتلا عليه القرآن، وإذا ببارقة من يثرب تضيء أفق مكة المظلم، وتتم بيعات الأنصار بيعة إثر بيعة وعهدًا إثر عهد، وختمت ببيعة (فتح الفتوح)، بيعة السبعين من

البهاليل الخزرجيين وإخوانهم الأوسيين أنصار الله وكتائب الفتح المبين، فقويت عزيمة رسول الله ﷺ بهذه البيعة التي كانت نقطة تحول في سير الدعوة، وانفرجت ضوائقه ﷺ، وتنفَّس أصحابه تنفس الروح والأمل وأُري رسول الله ﷺ دار هجرته وهجرة أصحابه رمزًا ومثلًا، لا يحدد مكانًا، ولا يعيِّن بلدًا إلا بالوصف العام الذي لا يوصد باب المشاركة، ففي الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: "رأيت أني مهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهْلي إلى اليمامة أو هجر(١٣)، فإذا هي المدينة يثرب".

وعند البيهقي من حديث صهيب قال ﷺ: "رأيت دار هجرتكم سبخة بين ظهراني حرّتين، فإما أن تكون هَجَر أو يثرب" قال العلماء: أُري ﷺ دار هجرته بصفة تجمع بين المدينة وغيرها، ثم أُري الصفة المختصة بالمدينة فتعينت.

واستأذنه أصحابه في الهجرة إلى إخوانهم أنصار الله، فأذن لهم لينقل مجال الدعوة إلى موقعها من القوة في مسيرة التاريخ.

فليس الفرار من قسوة التعذيب وفظاعة الاضطهاد هو

(١٣) الوهل هنا بمعنى الظن. (المجلة)

العامل الأول في هجرة أصحاب محمد ﷺ، وليس الهرب من فادح البلاء وعتوِّ الفجور هو الدافع الوحيد على مفارقة الظلم والظالمين إلى حيثما وجد الأمن والاستقرار لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة.

لأن الفرار والهرب إذا استقاما أن يكونا عاملًا من عوامل الهجرة ودفاعًا من دوافعها بالنسبة إلى بعض المستضعفين فلا يستقيم في شرعة الإنصاف ومعرفة أحوال المهاجرين ومكانهم في قومهم بالنسبة للكثرة منهم، وهم من صفوة شباب قريش وأبناء أشرافها أن يكونا هما العامل الأساسي على الهجرة، ومن يمعن النظر في أسماء وأنساب المهاجرين وما احتف بهجرتهم وخروجهم يعلم حق العلم أن نشر الدعوة في جو بعيد عن المضايقات الفاجرة كان عاملًا قويًا من العوامل التي دخلت في حساب المهاجرين في هجرتهم إلى الحبشة، وهجرتهم إلى المدينة المنورة، والالتحام مع إخوتهم الأنصار في وحدة إيمانية تنطلق في إطارها الدعوة إلى الله قوية قاهرة، تدفع عن نفسها ولا تهاجم مَن لا يتعرض لها في طريقها، معوقًا لها عن سيرها.

وإذا تحقق في هذه الهجرة منتأى عن الاضطهاد وشدة الإيذاء، وتحقق بها الأمن والاستقرار فلا ضير على أصحاب

محمد ﷺ أن يدخل ذلك في قصدهم ؛ لأن بقاءهم بمكة تحت وطأة الصبر المرير ، والاحتمال الوجيع ، وقد وجدوا مجالًا فسيحًا للحركة الآمنة في سبيل نشر دعوة الحق والنور ، التي آمنوا بها واحتضنوها بين جوانحهم تعريض لأنفسهم للهلكة وتعريض للدعوة إلى التجمد والوقوف بها عن التقدم ، أو على الأقل يكون فيه تسليم لزمام نشر الدعوة وتبليغ الرسالة إلى من لم يكونوا سابقين إليها . ولا شك أن الصحابة كانوا على أتم العلم أن انحيازهم إلى إخوانهم الأنصار يزيد في قوة تناصرهم ولا سيما وهم يعلمون أن النبي ﷺ سيهاجر إلى دار هجرته التي أريها في منامه بوحي من الله - كما هو صريح حديث الصحيحين - وليس من المعقول أن يتخلّفوا عن رسول الله ﷺ ويستسلموا للبقاء في دار أجمع أهلها على ظلمهم وتعذيبهم ليفتنوهم عن دينهم إن استطاعوا .

ومن ثَمّ توافت عزائمهم قوية ماضية على أن يكونوا في شرف استقبال رسول الله ﷺ يوم يحل بدار هجرته آمنًا مطاعًا إلى جانب إخوانهم أنصار الله وأنصار الرسول ، فخرجوا يتسللون لواذًا ، وتركوا وراءهم مكة ، وطواغيتها ينعق في طرقاتها بوم اليأس فوق رءوس الملأ من الطغاة والمستكبرين ، إلى أن يجيء وعد الله بالفتح المبين ، فتح مكة ، وتطهيرها من

رجس الوثنية البليدة ، والشرك الأثيم على أيدي هؤلاء الصفوة الذين أخرجتهم مكة منها ليعودوا إليها ظافرين منتصرين ، يهدون بالحق ، ويدعون إلى الله ورسالته .

الهجرة لم تكن فرارًا من الإيذاء:

وإذا كان هذا هو التصوير الحق الذي يؤيده الواقع ، وتعزّزه الوقائع ، وتنصره الأحداث في بيان عوامل هجرة الصحابة رضوان الله عليهم أولًا وآخرًا ، وبيان دوافعها التي توافقت على تحقيقها ، فكانت أعظم آية من آيات الله التي نصر بها هذا الدين القيِّم ، وفتح بها الطريق لنشر دعوته في الخافقين ، ورفع لواءه في آفاق العالمين ، على أيدي هؤلاء الذين تركوا ديارهم وأعز ما فيها من مال وولد في سبيل إعلاء كلمة الله ، كلمة الحق والتوحيد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور - فإن هجرة النبي ﷺ أحق أن تكون هجرة فتح للدعوة وانطلاق بالرسالة إلى أرجاء الأرض في حرية فكرية لا تُكرِه أحدًا على قبولها والإيمان بها .

فالذين يترخصون من ذوي البلاهة والغفلة المنتسبين إلى زمرة أهل العلم في ذكر الفرار عاملًا من عوامل هجرته ﷺ من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة ، ودافعًا من دوافعها ،

أولئك لم يقدّروا مواقف النضال المرير، والكفاح الوجيع التي وقفها رسول الله ﷺ طول مدة إقامته بمكة، لا يخشى جبروت ملأ مكة، ولا يخاف بطش طواغيتها، وهم بهذه البلاهة والغفلة يفتحون منافذ التقوّل بالباطل على رسول الله ﷺ من أعداء الإسلام وملاحدة الاستشراق والتفلسف القديم والحديث، لأن هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة كانت اللبنة الأولى في بناء صرح الإسلام على دعائم القوة الموجهة لمسيرة الحياة على مدى سير التاريخ البشري في مساره الجديد الذي اختطت رسالة الإسلام جادته للناس في مشارق الأرض ومغاربها، وأقامت لهم على جوانبها منائر الهداية ومعالمها لإرشاد السالكين أن يضلّوا طريقهم في مهايع الحياة ومسالكها، بعد إذ جاءهم الهدى، واستنارت لهم معالم الطريق.

فهذه الهجرة النبوية كانت نقطة التحول في مشارع الحياة الإنسانية التي ضلّت طريقها، وانشعب بها السير في متائه من مضلات الفكر، وانحراف العقل، وحجب إشراق الروح، ومضت الإنسانية قبل رسالة الإسلام ضالّة تائهة، لا تعرف من أين جاءت وإلى أين تسير؛ لأنها فقدت ذاكرتها وفقدت إدراكها، وعميت عليها جوادّ المسالك، واشتبهت

في نظرها أعلام الهداية، فأُبلِستْ تتعاورها رياح الريب والأوهام، وتهزها هزاهِز التخرصات والتخيلات، وانطفأ في يدها مصباح الحقيقة، ولم يبق في كنانتها إلا أزلام من بقايا كهانات النافثات في العقد، كلما نظرت إليها أوغلت في الضلال، وهي تهوي إلى هاوية الضياع.

رسالة الإسلام تعرّف الإنسان بربه وتحرره من التعبد لغيره:

وجاءت رسالة الإسلام لتنقذ الإنسانية من ضلالها، وتخرجها من منحدرها الذي هوت إليه، لتقف بها في مصابّ أنوار الهداية، وهي تنسكب من أشعة شمس الرسالة الخاتمة، منطلقة إلى أرجاء الحياة، وفي يدها مصباح الكلمة الإلهية مشرقًا، تنادي السارحين في مسارح الرِّعْيَة والسُّوام[١٤]:

﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٦٤)

وهذا النداء الموحّد لكلمة الإنسانية في إطار كلمة الله هو

(١٤) المعنى: الذين اعتادوا أن يرعاهم غيرهم ويتولى توجيههم وكأنهم سوامٌ أي دواب. (المجلة)

النداء الذي أذّنت به رسالة الإسلام لتحرير الإنسانية من بوائق كل عبودية لغير الله تعالى، ولم يبق وراءه إلا عبودية المخلوق للخالق وحده، لأن العبودية لله الخالق المبدع شرف فوق كل شرف، والعبودية لغير الله مهانة أرذل من كل مهانة.

ورسالة الإسلام إنما جاءت لتعلم الإنسان أنه إنسان، وإذا عرف الإنسان نفسه عرف بهذه المعرفة ربه وخالقه، لأن مرتبة الإنسانية في مراتب المخلوقية أعز وأعظم مراتب العبودية للخالق عز شأنه، وهي بهذا أجل مراتب التعزز المتحرر من خنوع العبودية لما في الكون من مخلوق صامت أو ناطق، وهذه المعرفة منتهى آفاق العلم والمعرفة في هذا الوجود.

أفكان محمد ﷺ وهو رسول الله ﷺ بهذه الرسالة الخاتمة لرسالات السماء الخالدة على الأرض بخلود الإنسانية على ظهرها، المَحْبُو بالاصطفاء لها، المكلف نشرها بين العالمين، وتبليغها للناس كافة أينما كانوا، وحيثما بلغهم بلاغها، بلاغًا بيِّنا، يجعل ليل الحياة كنهارها، إشراقًا ونورًا، وهدى ورحمة، وعدلًا وإحسانًا، وإخاء ومحبة، ومساواة ومواساة - يخشى في تبليغ هذه الرسالة شيئًا مما يدخل في إطار المخلوقية؟ والخشية لون من ألوان العبودية في رسالة محمد ﷺ التي لم يوصف هذا النبى الكريم والرسول الأمين

بأفضل، ولا أرفع، ولا أجل، ولا أعظم من أنه عبد الله ورسوله، ولمَّا شرفه في مقام أقرب القرب لم يقل له "خليلي وحبيبي" وهو خليله وحبيبه، ولكنه قال عز شأنه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ (الإسراء: ١)

فالعبودية في رسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ هي تعبير عن الخضوع المستسلم الذي لا يملك فيه العبد مع سيده (لا) ولا (نعم)، وإنما يملك في تحقيق العبودية على أكمل وجودها أن يسلم وجهه لله الذي خلقه وهداه للعيش في حياته.

محمد ﷺ لم يخش في تبليغ رسالة ربه أحدا:

فمن المحال الذي لا يعرفه الوجود أن يجعل محمد رسول الله ﷺ شيئًا من الخشية في تبليغ رسالته والقيام بموجبات هذا التبليغ لأحد أو شيء غير الله تعالى الذي اجتباه لها على علم منه سبحانه وتعالى؛ لأن محمدًا ﷺ عرف حقيقة عبوديته في شرف إنسانيته، وبهذه المعرفة عرف ربه وخالقه في قهره فوق خلقه، وجلال كبريائه وعظمة خالقيته، والخالقية أخص نعوت الكمال الإلهي الحق، فكان له عبدًا وللحياة سيدًا.

وقد نزَّل الله عليه في الكتاب مفخرة المفاخر التي زكاه بها فيما زكى إخوانه المرسلين، وهو ﷺ صاحب المقام

المحمود في هذه التزكية المنيفة، فقال له متلطفًا به في أشد مضايق مواقفه في رسالته: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٣٨، ٣٩)

وهذا نص قاطع في أن شأن رسل الله إلى الخلق في تبليغ رسالات الله أنه تعالى جبلهم على أرفع درجات الشجاعة وقوة اليقين والثبات، فلا يخشون أحدًا إلا الله، ولا يرهبون قوة إلا قوة الله، لأنه هو القوي على الحقيقة، الذي يقهر بجبروته كل قوة خلقها.

أما العوارض البشرية التي لا تتعلق بتبليغ الرسالة، وإنما تكون بمقتضى التكوين الخلقي والغرائز البشرية، فهذا ما لا يدخل في خصائص رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه التي سَمَوْا بها فوق طبائع الناس، فلا حرج من وقوع الخشية منهم صلوات الله عليهم وسلامه إذا كانت من هذا القبيل، ثم يتداركهم الله بعواصمه، فيذيب من صدورهم خشية غيره كائنًا ما كان، ولا يبقى فيها إلا خشية الله، ولعل خشيتهم لغير الله التي تعتريهم بمقتضى طبائعهم البشرية يكون وقوعها منهم

من باب التأسي بهم، لئلا تخرج الحياة عن نواميس التكوين البشري بما فيه من الغرائز وآثارها.

والقرآن الكريم حكى عن بعض أكابرهم شيئًا من هذا النحو الذين لا يضيرهم في مهمتهم العظمى، ففي قصة إبراهيم خليل الله عليه السلام إذ جاءته رسل الله من الملائكة بالبشرى، ولم يكن لديه - في أول الأمر - علم بأنهم رسل من الله إذ جاءوا في صور بشرية تأنيسًا له ولزوجه سارة، يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ (هود: ٧٠). وفي قصة موسى كليم الله مع السحرة يقول عز شأنه: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (طه: ٦٧، ٦٨)

مرد الخشية في قصة زيد بن حارثة مكونات الطبيعة البشرية وغرائزها:

فإذا جاء في حق سيد المرسلين محمد ﷺ، في قصة مولاه وحبه زيد بن حارثة مع زوجه السيدة النبيلة زينب بنت جحش رضي الله عنهما، التي شرفت بعد هذه القصة بأشرف مقامات القرب من رسول الله ﷺ، فكانت أمًا للمؤمنين بزواجه ﷺ

منهـا بعد مـولاه وحبّه وضعا للأمور فـي مواضعها : ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ (الأحـزاب : ٣٧) في صدر الآية نفسـها التي جاء فيها الثناء على رسـل الله، في تبليغ الرسـالة وأنهم لا يخشون أحدًا إلا الله، فهو من قبيل ما يعرض للطبائع البشـرية، بمقتضـى تكوينها مـع ملاحظة حكمة التأسِّـي به ﷺ، لأن هذه الخشـية التـي تلطف الله تعالى فنبَّـه إليها نبيه وحبيبه عليه الصلاة والسلام لم تكن لها علاقة بتبليغ الرسالة مـن قريـب أو بعيد، وإنمـا هي خشـية مردها إلى مـا يعتري الطبيعة البشـرية التي من شـأنها أن تنفر من قالة السـوء، وأن تخشـى التقوّل عليها بالباطل وقول الزور، فلم يكن مرد هذه الخشية عند رسـول الله ﷺ رهبة شيء يحول بينه وبين تبليغ رسـالته، على ما فيها من تسـفيه أحلام المسـتكبرين، وإنما كانت تهيُّبا لما يتوقع من آثار أسـبابها من الإشـاعات الكاذبة والإرجـاف بالأباطيل التي قد تؤثر على بعض ضعفاء الإيمان، أو تقف عقبة في سـبيل تبليغ الرسـالة، فيستغلها الذين قالوا آمنـا بأفواههـم ولـم تؤمن قلوبهم، مـن المنافقيـن الذين ملأ صدورهم الكفر الحقود، وهـم إذْ ذاك متوافرون في المجتمع الإسـلامي، يتربصـون بالنبـي ﷺ وبرسـالته وأصحابـه نُهَز

التقوّل الكـذوب(١٥)، والافتراء المختلـق، والعرف الجاهلي بما فيه من مفاسـد وشـرور مترسـخ فـي أنفس الجاهليين، متشبث بقلوبهم لا يفارقها ولا يريم عنها.

وهـذا العـرف بأباطيله وشـروره ومفاسـده كان يجعل من الدعيّ ابنا ويعطيه خصائص البنوة الحقيقية في أمور تجر على المجتمع من الشرور والأسواء ما لم تؤمَن مغباته وعواقبه على حياة الأمة في حاضرها ومستقبلها.

وقـد كان مـن أظهر مفاسـد هذا العـرف الباطـل التعاير بتزوج الرجل زوجة دعيِّه إذا طلّقها الدعي باعتقاد أن الدعي ابن حقيقي، فإذا أراد الله تعالى أن يبطل هذا العرف الفاسـد المفسـد، لـم يكن ثمة مـن يتحمل ثقل هـذا الإبطال أقوى إرادة وأمضـى عزمًا، وأعظم نفسًـا، وأطهـر ذيلًا، وأبعد من التهمة سـوى رسـول الله ﷺ؛ لأنه ﷺ هو الأسوة المتأسَّى به في امتثال تطبيق الأحكام الشرعية، وهو ﷺ القدوة التي تجري على سـننها أمته، وهو ﷺ مهبط الخطاب الإلهي في جميع الأحكام.

فمن هنـا كان ﷺ هو المختار لتصحيـح أباطيل الجاهلية

(١٥) المراد: يتحيَّنون أي فرصة للكذب عليهم. (المجلة)

ومفاسدها، تطبيقًا في واقع الحياة، فقيل له: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب: ٣٧) - بنعمة الإيمان والإسلام وكفالتك إياه وتحببه إليك، ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب: ٣٧) بالعتق والحرية والرعاية وإحسان التربية والاختصاص بك، فكان حِبَّك ومولاك، ولم يكن ابنا لك وُلد من صلبك - وهو يعرض عليك ثقل الحياة الزوجية في بيته مع زوجه، وما يلقى من مرارة في عشرته معها، ويشاورك مستأذنًا في مفارقتها بعد يأس منه في حسن الموافقة، فتقول له متلطفًا: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٣٧) لأنك منبع التلطف والإحسان، تأبى عليك نفسك الزكية، وتأبى عليك مكارم أخلاقك أن تشير عليه بفصم عرى ما عقد الله بينه وبين زوجه من وشائج كان من حقها أن يظللها الود والسكون، وهما منك في القرب الودود بمكانهما الذي لهما عندك، ولم يكن هناك قط-أمر من الله لك بتطليقها منه، وإن تكن قد سبقت إليك لوائح إشاراتنا - وأنت لَماح البصيرة، مشرق القريحة، لم تفتك لمحة البدء في هذه القصة، - إذْ قطعنا وشائج الجاهلية المزوَّرة بين الدعيّ ومتبنيه، بقولنا: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٤) وأوضحنا الحق الذي جعلناه نهجًا في واقع

الحياة بتصحيح وضع هؤلاء الذين شذَّت بهم الحياة عن نهجها القويم، رفعًا لخسيسة ألصقت بهم إلصاقًا، فنفتهم عن آبائهم ونفت آباءهم عنهم، وباعدت بينهم، ثم وصلنا ما قطعه الجهل في الجاهلية بأعرافها الفاسدة المفسدة، وقلنا لك لتعلِّم أمتك: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب: ٥) لأنه الحق، ولأنه سبيل الخير الذي يهدى إليه الله في شريعته المنزلة لإقامة منار العدل ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ ﴾ (الأحزاب: ٥) فلا ضيعة لهم عند الله ولا ضيعة لهم في مجتمع الإسلام، لأنهم إخوانكم في الدين الذي جمعت وشيجة الإيمان بين سلائله من جميع الأجناس والأوضاع ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠) وهم بهذا الإخاء الإيماني مواليكم وأقرب الموالين لكم، يناصرونكم وتناصرونهم على البر والتقوى، فهم أحق بالإكرام والإحسان.

ولكنك في هذا التلطف مع حِبك ومولاك ومكفولك أخفيت في نفسك لوامح الإشارة فيما أنزلناه عليك من قطع وشائج الجاهلية الكاذبة التي عقدوها بأهوائهم وشهواتهم بين المتبنِّي ومتبنيه، وما يترتب على قطع تلك الوشائج الجاهلية المخترقة من إصلاح اجتماعي في مجتمع رسالتك،

لتكـون أنت مصدره ومنبعه، والمتأسّـى به فيـه، في التطبيق الواقعي الـذي يقوِّم أود الحياة وعـوج مناهجها، بعد تقويض كل باطل يفسد على الناس عيشتهم - خشية تقوّلات أعدائك وتَكَذّبهـم عليك وعلى ما جاءت به رسـالتك من إصلاح يضع الأمور في مواضعها، ويرد الحقائق إلى أصولها.

وهذا الذي أخفيت من رشـح لوامع الإشـارة في نفسـك أو توجست منه خيفة أن تكون حامل ثقله وأثقال أداء أمانته، وإن كان لا يمس تبليغك رسـالتك، لأنه لم يكن أمرًا أو نهيًا تقدم الله به إليك فخالفته - وحاشاك أن تخالف لله تعالى أمرًا أو نهيًا - كمـا أنه لا يمس مكانتك من السـمو في مـكارم الأخلاق، لأنـك لـم تتبـع فيه هـوى، ولا خضعـت فيه لرغبة هجسـت في نفسـك، وإنمـا كان هذا الإخفاء عملًا مـن عوامل الفطرة البشـرية، واسـتجابة لدواعـي الطبيعـة التـي لا تدخل تحت حكـم التكليـف، لكنه قد يعـوق إصلاحًـا اجتماعيًا، ويبطل عادة فاسـدة، مسـتحكمة في أعراف الجاهليين، فيتأخر زمن إصلاحها نتيجة لتهيبك قالة السـوء والبهتان التي قد يتقوّلها عليك أعداؤك وأعداء رسالتك ممن استعبدَتْهم عادات الفجور الجاهلي المتوارثة، فخشـيت أكاذيبهم، وهم أذل وأعجز من أن ينالوا منك نيلًا بباطل يزوّرونه من عند أنفسهم افتراء على

الله ورسـوله ﷺ، وربـك الذي أرسـلك لتصلح الحيـاة، التي أفسدها فجور الوثنية والإلحاد، وتضع لها منهجًا في سلوكها الاجتماعـي، يجعل منها منتجعًا لحضـارة تزاوج بين حاجات الـروح والمـادة في ظل مـن العدالـة التي تعطـي كل ذي حق حقـه، هو الذي تكفل بحمايتك من آثار تقوّلاتهم وأباطيلهم، فهو أحق أن تخشـاه في كل مـا يعرض لك من عوارض الحياة، كخشـيتك لـه في كل ما يتعلـق بتبليغ رسـالتك، لأنك به قد سموت برسالتك على كل متعارف ومألوف، فلا تقفن بنفسك عنـد عـوارض الطبيعة البشـرية وليكـن لك من قـوة العزيمة الحازمـة ومضائها مـا تُخضع به دواعي الطبيعة لهمسـات ما يلقى إليك من رشح الإشارات.

وقد كان هذا الإصلاح الاجتماعي، الذي لوحت به الإشـارة بقطع وشـائج الجاهلية في المتبنّى وردّ روابطه الإنسـانية إلى أصولهـا الحقيقية -أولًا، ثم إلى الروابـط الإيمانية ثانيًا- من محكـم تدبيـر الله لحكمة ما كان أحد يعلمهـا، مما جعل الله إنفـاذه في قضـاء غيبه وتطبيقه في واقع الحيـاة على يدي من حمل أمانة الرسـالة الخاتمة، وتحمل أثقالهـا، حتى إذا ألفته الحيـاة ذابـت أثقالـه، وعاد الأمـر فيه جـددًا سـويًا بِحكَمِه وشريعة واجبة الامتثال بأحكامه وآدابه.

هكذا يجب أن يفهم المقصود مما أضيف إلى رسول الله ﷺ من خشيته للناس في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ (الأحزاب: ٣٧) منظورًا فيها إلى سياقها من القصة التي وردت في شأنها، ومنظورًا فيها إلى الجو الذي دارت فيه معالم القصة، وهي بهذه النظرة وهذا الاعتبار الذي يجب أن يعوّل عليه، ليس فيه قط أن محمدًا ﷺ خشي أحدًا أو شيئًا من الخلق في تبليغ رسالته وأوامر ربه ونواهيه وأحكامه وتشريعاته، فأحجم عن التبليغ لهذه الخشية.

وهو ﷺ قد بلغ رسالات ربه في أحرج الأوقات وأشد الأزمات وأقسى المواقف، بلغها يوم كان وحيدًا، لا ناصر له من الخلق، ولا معين له من الناس، يوم بدأه الوحي مفاجئًا في حراء، وليس له في نفسه أدنى تطلّع أو توقع أن يأتيه رسول ربه وأمين وحيه جبريل عليه السلام، ويقف منه ذلك الموقف الذي عجزت أقلام أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء عن تصوير مبلغ شدته، وما أخذ النبي ﷺ فيه من الدهش والفزع والرعب، وما ناله ﷺ فيه من تحول في طبيعته البشرية، وصلته بالملأ الأعلى؛ مما لم يكن له به عهد قبل ذلك حتى انتهى به الأمر في هذا اللقاء المفاجئ إلى أن يُطلب منه ما لم يكن قط في قدرته ولا في حسابه ولا خطر على باله، فيقال

له: ﴿ٱقْرَأْ﴾ وأنى له أن يقرأ؟ في سبيل تحقيق ما طلب منه وليس في استطاعته يلقى ما لقي من الشدائد التي كان يرى فيها الموت عيانًا، وينفصم عنه الوحي وقد قرأ أول ما أنزله الله عليه في مطلع رسالته خمس آيات من سورة العلق، هُنَّ جماع رسالته، وذهب بها موقنًا أنه رسول الله إلى الخلق كافة أحمرهم وأسودهم، إنسهم وجنهم.

ومضى ﷺ في تبليغ رسالته متحمسًا راسخ اليقين، ثابت الجنان وحيدًا، يحمل بين جنبيه عزيمة ماضية صادقة، لا يخشى أحدًا ولا يتردد في سيره بدعوته ورسالته، فكان يدعو من الأقوام من يأنس فيه إدراكًا متميزًا، وعقلًا درّاكًا وقلبًا مستعدًا، لا يعم بدعوته، ولا يجم بها، وهو مستسر بها في دار الأرقم حتى تجمّع حوله فئة من ذوي الاستعداد الخاص لقبول دعوته، وسرى الهمس منهم إلى غيرهم فأقبل من أقبل واستجاب من اهتدى وكانوا كالقطر الرذاذ الذي يقدم الغيث الهتون[١٦].

وبلّغ ﷺ رسالات ربه لا يخشى أحدًا أو شيئًا من الخلق يوم قال له وحي ربه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، فصعد على الصفا ونادى قومه الأقربين، يعم ويخص حتى

---

(١٦) يقال للمطر (هتون) إذا كان غزيرًا. (المجلة)

اجتمعوا له فدعاهم إلى الله، وإلى توحيده، وأنبأهم أنه رسول الله إليهم خاصة وإلى الناس عامة، فبدره فاجرهم أبو لهب بأقبح القول، ثم انصرفوا عنه لا يخشاهم، ولا يخاف شيئًا يأتيه من قبلهم، ولم تَخُنْه شجاعته، ولا فتَّ ذلك في عزيمته، ومضى قُدُمًا يبلِّغ رسالة ربه.

وبلّغ ﷺ رسالات ربه يوم أن نزل عليه الوحي بقول الله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤) فكان يدور على حِلَق الملأ من فجار الشرك وطواغيت الوثنية وهم في مجالسهم حول الكعبة يهجرون، وفيهم أفجر الفجار وأعدى أعداء دعوة الإسلام من أضراب أبي جهل، وابن أبي مُعَيط، وابني خلف، أبيّ وأمية، والأخنس بن شريق، يدعوهم إلى الله، ويبلِّغهم رسالة ربه، لا يخشى أحدًا منهم، ولا يخاف شيئًا من طغيانهم وفجورهم.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم أن ضرب على أبي جهل بابه، يأمره أن يقضي الإراشي حقّه الذي مطله به، فلم يبرح رسول الله ﷺ باب هذا الطاغية الظلوم حتى ذل له واستخذى أمامه، وقضى الرجلَ الغريبَ الذي مطله ظلمًا حقَّه كاملًا.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم أقسم الكذوب المتكذب لعين السماء والأرض أبو جهل - أعدى أعداء رسالة الإسلام،

وأشدهم حقدًا وأخبثهم حسدًا لرسول الله ﷺ - أن يرضخ رأس محمد ﷺ إذا رآه ساجدًا في ظل الكعبة، وجاء رسول الله ﷺ على عهده وعادته إلى المسجد، وتأمّم الكعبة المشرّفة، وأحرم للصلاة وقرأ القرآن، وركع وسجد، وجاء الكذوب المتكذب أبو جهل يحمل صخرة عظيمة ليلقيها على رسول الله ﷺ وهو ساجد ليقتله، فما التفت إليه رسول الله ﷺ، ولا قطع صلاته خوفًا من فتك هذا الجبان المتكذِّب، ولم يَرُعْ ملأ الفجور وهم ينظرون إلى أفجرهم منتظرين ماذا هو فاعل لتنفيذ وعيده، إلا وهو مهزوم يتقهقر مرعوبًا مذعورًا، خزيان مخذولًا، يتّقي بيديه، تدور عيناه في وجهه كالذي يُغشى عليه من الموت، وقد نشف دمه في عروقه وأعصابه، وقام إليه ملأ الفجور دهشين مذهولين، يقولون في إشفاق متشمِّت: مالك يا أبا الحكم، فلم يَحرْ أبو الجهل جوابًا، وأكمل رسول الله ﷺ صلاته في هدوء لا يخشى إلا الله تعالى.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم قام أشقى ملأ الفجور عقبة بن أبي معيط مستجيبًا لصرخة حاقدة تنفس بها صدر أبي الجهل وهو يقول لملأ الفجور: من منكم يقوم إلى فرث وأقذار جذور بني فلان فيأتي بها ليلقيها على ظهر محمد - وهو يصلي -

فانبعث لعين القوم ابن أبي مُعَيط، وجاء بها وألقاها على ظهر رسول الله ﷺ، وهو ساجد، فلم يرفع ﷺ رأسه من سجوده، وظل ساجدًا حتى جاء الخبرُ فاطمة بنت رسول ﷺ وهي طفلة، فأسرعت إلى أبيها ﷺ، وألقت عنه ما وضعه اللعين عقبة بن أبي معيط، ثم التفتت إلى ملأ الفجور فسبتهم سبًا بلغ من نفوسهم، فخسئوا ولم يردوا عليها بشيء.

وبلغ ﷺ رسالة ربه يوم أخبره عمه العباس بن عبد المطلب أنه سمع أبا جهل يقول: إن لله عليَّ إن رأيت محمدًا لأطأنّ على عنقه، قال العباس: فخرجت من المسجد إلى رسول الله ﷺ حتى دخلت عليه، فأخبرته بقول أبي جهل، فخرج رسول الله ﷺ غضبان حتى دخل المسجد، فعجل أن يدخل من الباب فاقتحم من الحائط، قال العباس: فقلت: هذا يوم شر، فدخل رسول الله ﷺ، فقرأ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ حتى بلغ شأن أبي جهل ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ فقال إنسان لأبي جهل: يا أبا الحكم، هذا محمد، ... فلما بلغ رسول الله ﷺ آخر السورة سجد.

فليتأمل أولو الألباب في هذا الموقف ليروا كيف كانت شجاعة محمد ﷺ في تبليغ رسالة ربه، وصدق اعتماده على الله، دون أن يخشى أحدًا غيره تعالى وهو معرض للفتك به

وقتله، فهو ﷺ يُبلغه عمه العباس مشفقًا عليه، محذِّرًا أن يناله مكروه من هذا الجوّاظ[١٧]، غليظ الكبد، فيخرج ﷺ مغضبًا مسرعًا لا يصبر حتى يدخل من الباب فيقتحم من الحائط، ليكشف خبيئة الجبن في هذا المتكذِّب الرعديد، وليواجه ملأ الفجور في عنفوان طغيانهم دون أن يخشى صولة تكذبهم، ويجابههم بما أنزل الله تعالى عليه ﷺ من آيات القرآن المجيد في وصف متكذبهم أبي جهل، ليزيد من حنقه ويقدم على تنفيذ ما قال إن استطاع – ولن يستطيع – وهو ﷺ يعلم ما انطوى عليه هذا اللعين من جبن وتكذب، وبلغ رسول الله ﷺ آخر السورة فسجد، وسجود رسول الله ﷺ سجود قرب وشهود، لا تبقى معه ذرة من التفات لغير مراقبة الله عز شأنه، ولا يمكن أن يمر بخاطره ﷺ خشية أحد أو شيء غير الله تعالى.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم أن كان يطوف بالبيت، ويده في يد أبي بكر وفي الحجر ثلاثة نفر جلوس، وهم أخبث ملأ قريش، عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، قال عثمان بن عفان رضي الله عنه – وكان ثالث ثلاثة مع النبي ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه – فمر رسول الله ﷺ فلمّا

---

(١٧) الجواظ: الضخم الجافي الغليظ المختال في مشيته.

حازاهم أسمعوه بعض ما يكره، فعرف ذلك في وجه رسول الله ﷺ، قال عثمان: فدنوت حتى وسطته فكان بيني وبين أبي بكر وأدخل أصابعه في أصابعي، حتى طفنا جميعًا، فلما حازاهم قال أبو جهل: والله لا نصالحك ما بل بحرٌ صوفة، وأنت تنهى أن نعبد ما يعبد آباؤنا، فقال رسول الله ﷺ: «إني ذلك» – أي إني أنا الذي أنهى أن تعبدوا ما يعبد آباؤكم – ثم مضى رسول الله ﷺ، فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان في الشوط الرابع ناهضوه، ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه، قال عثمان رضي الله عنه: فدفعت في صدره، فوقع على استه.

إيهٍ ذا النورين، هذه واحدة بألف. ودفع أبو بكر أمية بن خلف، ودفع رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط، ثم انفرجوا عن رسول الله ﷺ، وهو واقف، ثم قال: «أما والله لا تنتهون حتى يحل بكم عقابه عاجلًا» قال عثمان رضي الله عنه: فوالله ما منهم رجل إلا أخذه أفْكَلٌ(١٨)، وهو يرتعد، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «بئس القوم أنتم لنبيكم» ثم انصرف إلى بيته فتبعناه خلفه، حتى انتهى إلى باب بيته ووقف على السدّة،

(١٨) أفْكَل: يعده، يقال: أخذه أفكلٌ: إذا ارتعد من برد أو خوف. (المعجم الوسيط)

ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «أبشروا فإن الله عز وجل مظهر دينه، ومتم كلمته، وناصر نبيه، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله بأيديكم عاجلا» ثم انصرفنا إلى بيوتنا، قال عثمان رضي الله عنه: فوالله لقد رأيتهم قد ذبحهم الله بأيدينا.

هذه قصة من واقع حياة رسول الله ﷺ، وهو يمضي قدمًا في عزيمة أرسخ قوة من الأطواد الراسية الشامخة في تبليغ رسالة ربه، لا يخشى مخلوقًا، ولا يخاف غير الله تعالى، وهي قصة من واقع الحقد الذي أفعم صدور طواغيت الملأ من فجار الوثنية في قريش، وهي في أبسط صورها تصف موقف أولئك الطغاة من رسول الله ﷺ وهم يضمرون الفتك به، وهو ﷺ لا يباليهم، ولا يرفع لفجورهم وما يضمرون رأسه، يواجههم بشجاعة تذوب أمامها تكذباتهم واستكبارهم وتنفجهم بالغرور(١٩).

فهو ﷺ يطوف بالبيت مع صاحبيه الصديق وذي النورين رضي الله عنهما وطواغيت الملأ من قريش يجلسون في الحجر، فإذا مر بهم أسمعوه هُجرهم، وهو يعرض عنهم تكرمًا، فإذا شعروا باستهانته بهم نهضوا يواثبونه، فيخذلهم

(١٩) تنفج بكذا: تطاول أو تكبر به. (المجلة)

الله خذلانًـا يخزيهـم، ويجرعهم مرارة القهـر والهزيمة، ولم يتركهم رسـول الله ﷺ حتى توعدهم بنكال من الله يحل بهم عاجلًا، فتصيبهم الرعدة رهبة لوعيده، وينصرف ﷺ إلى بيته ويتبعـه صاحباه الصديق وذو النوريـن، ليطمئنا على ألا يعود الطغـاة إلى مـا أرادوا من الطغيان، فيقبـل عليهما ﷺ بوجهه الأنور، يبشرهم بإظهار دين الله وإتمام كلمته ونصر نبيه ﷺ، وأن هؤلاء المسـتكبرين الذيـن يتعالون بالفجور مما يذبحهم الله بأيـدي المؤمنين عاجلًا، وقد فعـل الله تعالى وأنجز وعده لنبيـه ﷺ، وذبح أعداءه وأعـداء نبيه ﷺ بأيدي أحبائه الذين اسـتجابوا لله ولرسوله، فكانوا طلائع كتائب الجهاد في غزوة بدر التي ذبح فيها أولئك الطغاة بأيدي المجاهدين الصادقين، ومـن نجـا من بدر منهـم قتل بعيدهـا صبـرًا، وكان أخذ فيها أسيرًا، ذلك هو اللعين ابن أبي معيط.

وبلغ ﷺ رسالة ربه وهو لا يخشى أحدًا إلا الله، والمشركون فـي مكـة إلـبٌ عليـه متوافرون علـى عداوتـه والفتـك به إن اسـتطاعوا، يتواصون بذلك ويدبرون فيه ما شـاء لهم المكر الخبيـث والكيد العنيـد، يوم أن اجتمع أشـرافهم في الحجر فتذكروا رسول الله ﷺ، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سـفه أحلامنا، وشـتم آباءنا وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينمـا هـم كذلك إذ طلع رسـول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى اسـتلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت فغمزوه ببعض القول، وعـرف أثر ذلك في وجه رسـول الله ﷺ، ثـم مضى في طوافه فغمـزوه الثانيـة، ثم مر بهـم الثالثة، فغمـزوه بمثلها، فوقف ﷺ، ثم قال: «أتسـمعون يا معشـر قريش؟ أما والذي نفسي بيـده لقد جئتكـم بالذبـح» فأخذتْ القـومَ كلمتـه، فوجموا وأسـكتوا أذلاء مبهوتين، حتى كأن علـى رأس كل رجل منهم طائرًا، وإن أشدهم فيه وصاةً قبل ذلك وتحريضًا عليه، ليرفؤه بأحسـن ما يجد مـن القول، فيقول له: انصرف يا أبا القاسـم فوالله ما كنت جهولًا.

فانصرف عنهم رسول الله ﷺ حتى كان الغد، فاجتمعوا في الحجـر وقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه؟ فبينما هم كذلك إذ طلع رسـول الله ﷺ، فوثبـوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا بـه، يقولون: أنت الـذي تقول كذا وكذا؟ لمـا كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم؟ فيقول رسـول الله ﷺ في شـجاعة تخر لهـا الجبال، وثقة بالله تعالى تهوي لهـا الكواكب: «نعم، أنا الذي أقول ذلك».

هكذا يجابهم لا يخشى أحدًا إلا الله تعالى، وهم متمكنون منه محيطون به بينهم، ليس منهم رجل إلا ودّ لو أنه فتك به وقتله، وأنَّى للباطل المزعزع مهما كَثُر جندُه وأنصارُه أن يقوم للحق الموطّد أقدامه في أعماق أرض الحقيقة رسوخًا وثباتًا؟

وبلّغ ﷺ رسالة ربه، لا يخشى أحدًا إلا الله يوم أن تجمّع ملأ قريش وطواغيتها، ومشوا إلى أبي طالب يشكون إليه ابن أخيه، وما يباديهم به من تسفيه أحلامهم وعيب دينهم فيقول عمه وهو الذي نهض لحمايته والدفاع عنه، ما ظنه رسول الله ﷺ ضعفًا في عزيمة عمه، وتراجعًا عن موقفه منه، ويرد عليه رسول الله ﷺ بكلمته الخالدة التي تحمل من قوة الإرادة، ومضاء العزيمة، والاستهانة بكل وعيد، ومفارقة كل من لا يثبت في مجال الشجاعة، ما يدل دلالة قاطعة على أن محمدًا ﷺ، وقد اجتباه الله تعالى لأعظم رسالاته لا يعتمد في تبليغ رسالة ربه على حماية مخلوق، ولا يخشى في سبيل تبليغها أحدًا غير الله تعالى: «والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى ينفذه الله أو أهلك دونه».

أي قوة هذه التي أعطاها الله تعالى لمحمد ﷺ وقد اصطفاه لحمل أمانة أعظم رسالاته؟ وأية إرادة هذه التي أوتيها رسول

الله ﷺ وهو يمضي في تبليغ رسالة ربه لا يخشى أحدًا إلا الله تعالى؟ وأية عزيمة قاهرة تلك التي ملأت قلب رسول الله ﷺ وهو يجابه حشود الشرك والوثنية شاكين إلى عمه، ويلمح في هذا القم الذي جعله الله ركيزة له يتكئ عليها إذا اشتدت عليه الأزمات شيئًا من زعزعة العزيمة، فلا يبالي ذلك، بل يزيده قوة وعزمًا في مضيه قدمًا لتبليغ رسالة ربه.

وبلّغ رسول الله ﷺ رسالة ربه، لا يخشى أحدًا إلا الله تعالى أيام أن كان يخرج من بيته وحيدًا يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يدعوهم إلى الله تعالى وتوحيده، ويدعوهم لمناصرته حتى يبلغ رسالة ربه، ووراء عمه أبو لهب يتبعه أينما توجّه، يقول للناس: إنه كذا وكذا، سبًا لرسول الله ﷺ وإنه يريد منكم أن تخلعوا آلهتكم وتعبدوا إلهًا واحدًا، فلا يفت ذلك في عزيمة ﷺ، ويمضي إلى مضارب أشراف العرب ومحافلهم، لا يسمع بشريف قوم إلا جاءه ودعاه إلى الله وإلى نصرته، فيلقى من الإعراض وقبح الرد ما يلقى، وهو دائب لا يفتر، صابر لا يجزع، لا يخاف شيئًا من النوازل والأحداث، ولا يخشى أحدًا إلا الله.

وبلّغ ﷺ رسالة ربه يوم محنة الطائف، وكانت من أشد

المحن ذهب إليها وحيدًا، واجتمع إلى أشرافها وساداتها فدعاهم إلى الله وعرض عليهم رسالته وقرأ عليهم القرآن، فكانوا من أشد الناس قسوة في الرد عليه، وأسوئهم معاملة، وهو ﷺ في أقل اعتبارات المروءة العربية ضيفٌ عليهم في بلدهم وبيوتهم، ولكنه عاد منها يحمل أشد ما يحمل إنسانٌ من آثار سوء اللقاء، وبشاعة المقابلة، وقسوة البلاء الذي قابله باللجوء إلى الله وحده والتضرع إليه في دعائه وهو مكروب إذ يقول: «اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوٍّ ملكته أمري، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وبلّغ ﷺ رسالة ربه، وهو لا يخشى أحدًا إلا الله يوم أصبح يخبر الناس وقد احتشدوا له أنه أُسري به في ليلته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى ما فوق السموات

السبع، إلى حيث سمع صريف أقلام قضاء الله تجري بأقداره في خلقه، ويحدثهم بأعاجيب ما شاهد في رحلته الإعجازية العظيمة، وبما رأى من آيات ربه الكبرى، غير مبال ولا خائف من تكذيب الملأ وفجّار المشركين، وهم يومئذ تطفح صدورهم بأخبث ما تعرف الصدور من الشنآن، وتنزّ قلوبهم بأفجر ما تعرف قلوب الفجار من عداوة وبغضاء.

وكان عمه أبو طالب قد مات قبل الإسراء، وماتت زوجه، ومؤنس حياته وزيرة الصدق له السيدة خديجة رضيَ الله عنها، وكان ﷺ يجد في عمه أبي طالب أقوى الحمية في حمايته والدفاع عنه، وكان ﷺ يجد في زوجه بَلْسَم المضايق النفسية التي تعتريه نتيجة لشدائد الأحداث، فتمسح بحنانها وعواطفها وصادق حبِّها ما عسى أن يكون قد علق بنفسه، وكانت وفاتهما من أشد ما أحزنه ﷺ.

فإذا خلا جو مكة من وجودهما كان ذلك أشد سُعارًا لسطوة فجّار قريش، وكان هذا في طبيعة الحياة عذرًا مقبولًا أنه يتريث ﷺ في مخاطراته بتبليغ دعوته بعزيمته التي كانت له قبل موت هذين الساعدين، ولكن تاريخ نبوته ﷺ، ومراحل رسالته لم ينقل عنه أنه استأنى أو تقاعس لحظةً دون

تبليغ رسالته ونشر دعوته في قوة وشجاعة لا يخشى أحدًا إلا الله تعالى.

هذه شواهد ومُثُل من مواقف رسول الله ﷺ في المرحلة المكية لتبليغ رسالة ربه، تصور ما كان يملأ صدره الطهور من قوة الثقة بالله تعالى، والاعتماد عليه وحده، وتفريده عز شأنه بالخشية منه، دون أن يكون لأحد من الخلق، أو شيء من الحوادث خطورة بباله في جميع مواقفه منذ آذنه الله تعالى برسالته، وأمره بتبليغها في أول أمر بالإنذار فقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر: ١ - ٣) وهذه المواقف المتسامية كانت تطبيقًا لمضمون الاختصاص في أسلوب قوله تعالى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي لا تعظم ولا تتعاظم مخلوقًا قط غير ربك.

فقام ﷺ بما أمره به ربه، لم يفتر لحظة، ولا تأخر عن متقدم يتطلبه تبليغ الرسالة، مهما كانت الأزمات والشدائد والمضائق، والأحداث، لا يرهب أحدًا من الخلق، ولا يخشى شيئًا من الأحداث، بل ما كان ﷺ يشهد قط في خطواته مبلِّغًا رسالة ربه إلا عظمة الله، وجلال قهره، وقوة جبروته، ممزوجة بنسائم رحمته، وإنعامه، ومحكم تدبيره.

وكان ﷺ في جميع مواقفه لتبليغ رسالة ربه - ومجابهته لأعدائها وأعدائه من طواغيت الشرك والوثنية على أشد وأقوى، وأبلغ وأعمق ما تكون المجابهة في شجاعة هادئة، لا تتهور قط، وحزم مصمم لا يتعالى قط، وعزم ماض لا يتردد قط - معرَّضًا لما يريدون به من سوء وكيد ومكر، لا يتخفى ولا يداهن، وقد هَمُّوا بقتله والفتك به مرارًا فلم ينالوا منه نيلًا، وظل ﷺ على ذلك الجد الدءوب والصدق الصريح يبلغ رسالة ربه.

كانت الهجرة تطلعا لآفاق جديدة للدعوة والرسالة:

حتى إذا استيأس من بلده - وهي أحب البلاد إليه - واستيأس من قومه - وكانوا أحق الناس بقبول دعوته، والإيمان برسالته - ساق الله له أنصارًا أشداء الشكيمة، أقوياء العزيمة، راسخي اليقين، وجعل له بلدًا يئويه، ويئوي دعوته ويئوي أصحابه، يجدون فيه الأمن والاستقرار والمحبة والإخاء، والمواساة، والإيثار، وأراه في منامة ذلك البلد مَهْجَرًا له، ورأى في أهله حين بايعهم أنصارًا يبذلون في نصرته النفس والمال، لا يدخرون طاقة في سبيل الوفاء بما عاهدوا الله عليه في بيعتهم، ورأى فيهم كتائب جهاد مظفر، وأنضاء قتال مؤيد،

فأذن لأصحابه أن يهاجروا إلى أولئك الإخوة أنصار الله وأنصار رسوله، فهاجروا حتى أوعبوا[٢٠]، وهاجر معهم صوت الدعوة جهيرًا مجلجلًا، قويًا هادرًا، عليًا مدويًا، سروبًا سريًا، دخل كل بيت من بيوت المدينة المنورة، وتسلل إلى كل خِدْر ممنع في بيوتها، وعلا كل ذروة من ذرا أطوادها، وتنادى بالتضحية والفداء في مجامعها وحشود أبطالها، وتداعى للجهاد في سبيلها، متطلعًا إلى آفاق السماء يتسمع إلى أمرها، مشرئبًا إلى مقدم النبي ﷺ ليقود سير الدعوة إلى الله وتوحيده في مسيرة التاريخ الجديدة التي يستضيء فيها بأنوار رسالة محمد ﷺ، مستهديًا في مداخل الحياة ومخارجها بهديها.

وأقام النبي ﷺ بمكة يرتقب الإذن له بالهجرة إلى البلد الذي اختاره الله له، فوجدت فيه الدعوة الجو الرحيب لنشرها ومعه أصحابه، وأنصاره، مُمسكًا بزمام التاريخ لينطلق به في مسيرته إلى آفاق تحرير الإنسانية من عبوديتها لنفسها وعبوديتها للمادة الصماء، وإخلادها إلى الأرض في أنانية جوفاء، منهومة لا تشبع، ولا تريد أن تفارق الأرض، لأن التسفُّل طبيعة المادة، والعلو طبيعة الروح.

---

(٢٠) يقولون: فعل القومُ كذا حتى أوعبوا بمعنى حتى لم يبق منهم أحد إلا فعله. (المجلة)

والإنسانية حينما تسفَّلت فعبدت نفسها، وعبدت المادة في أخس وأظلم صورها إنما صنعت ذلك جهلًا بالقيم الروحية العليا، قيم الإيمان بقيوم السموات والأرض، وكفرًا بقيم الإيمان بقوى الروح والقلب والعقل، وصدوفًا عن الحق والعدل، لأنها لم تجد القائد الذي يردّها إلى معرفة حقيقتها التي تكمن وراء المادة حتى تؤمن بهذه القيم العليا التي يقوم على دعائمها بناء الإصلاح الشامل للحياة المادية والروحية في رسالة الإسلام التي بُعث بها محمد ﷺ.

وجاء الإذن إلى رسول الله ﷺ بالهجرة، ليكون أساسُ هذه الهجرة هو البؤرة التي يشع منها نور الرسالة، عملًا روحيًا بالقلب والفكر، يؤذن بضرورة الاعتصام بالله خالق الحياة ومسيّرها، وينبئ بضرورة صدق التوكل على مالك أزمة الحياة ليوجهها إلى صراطه المستقيم، صراط رسالة محمد ﷺ. وهذا تحقيق معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشورى: ٥٢، ٥٣) - استشعارًا بسابق فضله في توليه أمر

دعوة الهدى والنور، وتعهده نبيه وخاتم رسله ﷺ بالتربية والموالاة والرعاية.

ولذلك جعلت الوسيلة في هذا الدعاء بالهجرة اسم (الرب) تعالى، فقال له آمرًا بإخلاص التوجه إلى ربوبيته سائلا متضرعًا ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠).

قال السيوطي في (الدر المنثور): أخرج أحمد والترمذي وصححه- وابن جرير وابن المنذر، والطبراني، والحاكم - وصححه - وابن مردويه، وأبو نُعيم، والبيهقي معًا في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان ﷺ بمكة، ثم أُمر بالهجرة، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾.

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ الآية: أخرجه من مكة مخرج صدق، وأدخله المدينة مدخل صدق، ثم قال قتادة: وعلم نبيُّ الله ﷺ أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا

بسلطان، فسأل الله سلطانًا نصيرًا لكتاب الله تعالى وحدوده وفرائضه، وإقامة كتاب الله تعالى، فإن السلطان عزة من الله تعالى، جعلها بين عباده، ولولا ذلك لغار بعضهم على بعض، وأكل شديدهم ضعيفهم.

وقال أبو حيان في (البحر) عن قتادة في تفسير (سلطانًا نصيرًا) قال: ملكًا عزيزًا تنصرني به على كل من ناوأني.

فإذا هاجر رسول الله ﷺ مفارقًا مكة إلى المدينة بعد أن استيأس من بلده واستجابة قومه لدعوته، وهو يدعوهم إلى رسالة ربه ليخرجهم بها من الظلمات إلى النور، ويضع في أيديهم زمام قيادة الحياة، ويعقد لهم لواء سيادتها، فأعماهم الجهل والغرور والاستكبار، والعتو والعناد، فلم يروا نور هذه الرسالة، ولم يعقلوا حديثها، ولم يفقهوا آيات كتابها تُتلى عليهم، يتواصون فيما بينهم ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦) فإذا غلبوا على سماعه قالوا جهالة وعنادًا وعتوًا في الكفر، وفجورًا في البأو والتعالي، يستنزلون سخط الله عليهم وانتقامه منهم: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ ﴾ (الأنفال: ٣٢).

ولكـن وجود محمـد ﷺ بينهـم كان أمانًا لهـم من نزول ما يستحقونه من بأس الله وبطشـه، ونزل بهذا الأمان الوحي مـن الله تعالـى على رسـوله ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ (الأنفـال : ٣٣)، فلـم يبـق أمام رسـول الله ﷺ إلا مفارقتهم والخروج عنهم، ولم يبق لرسـول الله ﷺ ذرة من أمل في اسـتجابتهم للهداية، ولا بد للرسالة الإلهية أن تمضي في سـيرها إلى أرجـاء الحياة هاديـة داعية، لا تقـف عند بلد أو قوم أو جيل لأنها رسـالة عامة شـاملة، فلتمض في سـيرها، وليمـض بها حامل أمانتها رسـولها ومبلّـغ كلمتها إلى حيث تجـد مهادها ومحاضنها، لتثب وتنهض، ثـم تعود قوية قادرة إلـى مهدهـا الأول لتجده مطهرًا من رجـس الطاغوت، ولتجد فيه ما خبأت لها الأصلاب والأرحام من ودائع البطولة وكتائب الفتح المبين، وحملة ألوية الدعوة وتبليغ الرسـالة، لتضمهم إلى أحضانها وتوجههم إلى الآفاق داعين مجاهدين.

لقد هاجر رسول الله ﷺ بعد أن سَدَّت مكة في وجه دعوته جميع أبواب الأمل، وبعد أن هاجر أصحابه بأمره وإذنه هجرة مسـتوعبة لم تخلف وراءها بمكة إلا عاجزًا محبوسًا أو ضعيفًا مفتونًا في دينه، لم تكن هجرته ﷺ في شـرعة العدل والعقل فرارًا من مواجهة ملأ الفجور وطواغيت مكة، فطالما واجههم

ﷺ فـي أشـد المواقف، فكانـوا هم الخزايا الأخسـرين، ولا كانت هجرته ﷺ هربًا من تدبير خبيث، وكيد ماكر.

لقد تجمعوا له فخذلهم الله خذلانًا أذل عنجهيتهم إذلالًا لم تقم لهم بعده قائمة، ولا كانت هجرته خوفاً من قتله أو الفتك بـه أو اغتيالـه، فقد ترصـدوه على بـاب بيته يأويهـم الظلام بسـواده ومعهم أسـلحتهم، فخرج عليهم وأرغـم أنوفهم بما ألقى على رءوسهم من الرغام وهم ينظرون ويسمعون.

روى ابن إسحاق أن أبا جهل قال للقوم وهم مجتمعون على باب بيت النبـي ﷺ يرصدونه: إن محمدًا ﷺ يزعم أنكم إن تابعتمـوه على أمره كنتم ملوك العـرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان لـه فيكم ذبح، ثم بعثتم مـن بعد موتكم، ثم جعلت لكم نـار تحرقون فيها. وخرج عليهم رسـول الله ﷺ، فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: «نعم أنا أقول ذلك وأنت أحدهم».

كانت الهجرة النبوية تحويلا لمجرى التاريخ:

وإنمـا كانـت هجرته ﷺ تحويـلًا لمجرى الأحـداث إلى مصبهـا من محيـط التاريخ الذي تغيرت مسيرته فـي الحياة بهـذه الهجـرة المباركة، وقد كانت السـطر الأول في تجديد

تاريخ الإنسانية، وتوجيهها إلى حياة جديدة تقوم على توحيد الله، ونشر راية العدل بين الناس.

فحديث الفرار والهرب في تصوير الهجرة النبوية حديث دخيل مدخول على حياة أشرف من حمل أمانة أشرف وأكمل رسالة إلهية لهداية العالمين، رسالة وجهت التاريخ وجهة جديدة، أقامت معالم الحياة في طريق سيرها على دعائم من الخير والحق والهدى والعدل، لم يكن للحياة عهد بها من قبل أن تأتيها هذه الرسالة لتنقذها من براثن الشرور والفساد المادي، والمحل الروحي، والجدب الفكري، والجمود العقلي، وتولجها موالج الإصلاح والإشراق الروحي، والازدهار الفكري، والتحرر العقلي، لتقيم بنور العلم والمعرفة منائر العدل والمواساة في ظل من الإخاء والمحبة وحسن المودة.

هذه المواقف القوية الحازمة التي ضربناها مثلًا لقوة الشخصية التي امتاز بها النبي ﷺ في تبليغه رسالة ربه، معتمدًا عليه، لا يخشى أحدًا سواه، إنما آثرنا ذكرها (هنا) مجملة بعد ذكرها وذكر غيرها من المواقف الفريدة في مناسباتها مفصلة لأنها تصور مدى رسوخ إيمانه ﷺ برسالة نفسه، وعمق يقينه النفسي بهذا الإيمان الذي كان على طول مدى حياته ﷺ نبيًا ورسولًا هو الدعامة الصلبة التي تتحطم

على قوة تماسكها أقوى العزائم، كما كان هذا الإيمان هو المدد الثر الثري الذي يبعث الحيوية الناهضة في دفع الرسالة قُدُمًا لتتابع سيرها دون توقف أو فتور.

وكان هذا الإيمان أيضًا هو القوة الدافعة لحركة سير الرسالة على أيدي الصحابة بعد أن توحّدت قواهم في عزائم لا تفلّ، وإرادات لا تتردد، ولأنها تذكّر الذين ينسون في زحمة الأحداث وتتابعها ما عسى أن يكون ذهب عنهم من بواعث الواقع وما يستهدف من آثارها، حتى لا يبقى في صدور الذين أوتوا العلم شيء من رشح بعض الأقلام والألسنة التي إذا تحدّثت عن هجرة الرسول ﷺ من مكة المشرفة إلى المدينة المنورة كان حديثها تلقيًا حرفيًا من روايات لا تستقيم مع موازين النقد العلمي، وتلقفًا من الظواهر التي قد يقتضيها القصد إلى التأسي والاقتداء في حياة الأمة أفرادًا وجماعات.

فليس في هجرته ﷺ فرار، ولا هرب، ولا خشية من أحد سوى الله تعالى، والاختباء في الغار والتحرز في السير، والسُّرى تحت جنح الظلام، وتنكب الجواد إلى مسالك غير معبدة ولا مطروقة مما وقع لركب هجرة رسول الله ﷺ لم يكن منه ﷺ تواريًا لخشيته على نفسه من أحد، ولا كان

ذلك خوفًا من حادث يتوقعه، وإنما كان ذلك وقوفًا مع ما ينتظر أمته من شدائد الدعوة، وأخطار الجهاد في سبيل تبليغ الرسالة للتأسي به فيما لا يخصه من نوازع البشرية.

والأمة ليس لها من خصائصه النبوية ما يرفع عنها عوامل الطبائع البشرية، وتأثرات الغرائز الإنسانية التي يجب التحرز منها لمن لم يكن له حق العصمة، فالخوف والتحرز في أفراد الأمة وجماعاتها أثر من آثار الطبائع البشرية التي خلق عليها الإنسان والتي لا يمكنه التخلص منها إلا بعصمة من الله، والعصمة من خصائص النبوة.

وفي قول الله عز شأنه تصويرًا لموقف النبي ﷺ مع صاحبه الصديق أبي بكر رضي الله عنه - وهو أفضل رجل في أمة الإسلام، وأوثقهم إيمانًا، وأرسخهم يقينًا، وأعظمهم اعتمادًا على الله تعالى، وأصدقهم توكلًا عليه -: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة: ٤٠) ما يفتح مغاليق هذا الموقف، فالنبي ﷺ كان إذْ ذاك في موقف النبوة وعصمتها، ومحض الرسالة وخصائصها، وهذا مشهد من مشاهد اليقين الذي تبطل معه الأسباب والمسببات، وإذا بطلت الأسباب والمسببات انمحت عن مرآة النفس آثارها، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه كان في مشهد الإيمان والتبعية، لم

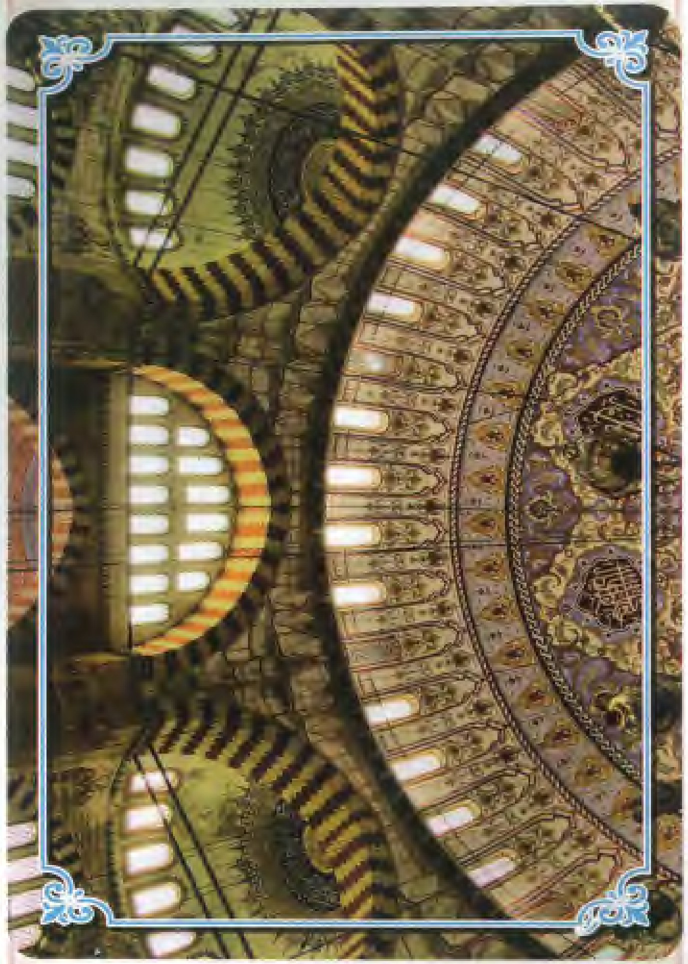
يخرج عن طبيعته البشرية، فتوجس - إذ الأخطار محيطة بالغار - خوفًا، واهتز كيانه البشري حتى قال: لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا، فقال له ﷺ ليثبته، وينقله من حالة تأثرات الطبيعة البشرية إلى شيء من مشهد التسامي على الأسباب والمسببات في شهود: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»، ويحجب عنه توجس الخوف مما يحيط بهذا التصوير الشهودي المحفوف بالعصمة المستغرق لبشرية رسول الله ﷺ بأنوار المعية الخاصة.

ولهذا جاء التنزيل الحكيم بأسلوب الإعجاز حاكيًا لوحي الإلهام بأسلوب النبوة في توافق متقارب، أو تقارب متوافق بالنسبة لموقف الصديق رضي الله عنه، فتنزلت عليه السكينة، وسما إلى مشهد اليقين الصدِّيقي، وأمدّه الله بقوة شهود تأييد الله تعالى لنبيه ﷺ بجنود من عالم الغيب، لا ترى إلا بخصائص النبوة، وهنا يتطاير حشد الأعداء عن فم الغار، ويخرج النور من الغار إلى أفق السماء، ويبدأ الركب المبارك سيره محفوفًا برعاية الله، لا يخشى أحدًا في الدنيا غير الله، ميممًا طيبة الطيبة، تاركًا وراءه مكة الحبيبة إلى عودة بعد اشتياق واستعداد، مودعًا لها في حنان المهد، فيقول ﷺ: «والله إني لأخرج منك، وإني لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى

الله، وأكرمهـا على الله تعالى، ولـولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت منك».

وأخرج الإمام أحمد والترمذي - وصححه - عن عبد الله بن عدي رأيت رسول الله ﷺ على الحزورة - سوق كانت بمكة - فقال: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنـي أُخرجت منك ما خرجت»، وعند الترمذي من حديث ابن عباس يرفعه إلى رسـول الله ﷺ: «مـا أطيبك من بلد، وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك».

الفهرس



مطابع الأهرام التجارية- قليوب- مصر

❀ ❀ ❀

الأزهر

هدية مجلة الأزهر

لشهر ربيع الأول

١٤٣٨ هجرية